روايات عبير

جروح

رابكا كاين

عصفور في اليد



٤٠

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 40

عصفور في اليد

معظمنا يشعر بأشواق مضطرمة للسفر بعيداً بحثاً عن الاثارة. بل والخطر احياناً. انه الفرار الذي نسعى اليه جميعاً في وقت ما من حياتنا. الفرار الى السعادة. أن العمياء قالت: البشر لا المدن والممتلكات يصنعون السعادة او الشقاء في الحياة. أما كريستي التي ورثت تجارة الاصداف عن عمها نول لم تكن تعرف حقيقة الشيء الذي دفعها للسفر.

لم يكن الهروب من خطيبها ستيفن ولا الرغبة في اكتشاف المجهول ولا متعة التجوال في مدن من اسمنت. فما الذي ناداها لتقطع مسافات شاقة الى جزيرة كاليندا في المحيط الهادىء.

هل هو الحب أم نوع من تحدي النفس واثبات الذات.

مات دينهام الرجل الوحيد في الجزيرة القاحلة لم يرحب بكريستي وافهمها انها مجرد قنفذ شائك غير مرغوب فيه.

ترى هل تقبل كريستي الخروج من جنة كاليندا شرط الدخول الى قلب مات دينهام؟ وهل تتحول اشواك القنفذ الى زهور رقيقة؟

لبنان	٧ ل.ل.	الكويت	٧٠٠ ف	اليمن	٨ ر	السودان	٨٠٠ م
سورية	٨ ل.س	الإمارات	٩ د	تونس	١ د	U.K.	£ 1
الأردن	٥٠٠ ف	البحرين	٩٠٠ ف	ليبيا	٧٠٠ د	France	F 10
العراق	٥٠٠ ف	قطر	٩ ر	المغرب	٨ د	Greece	Drs 120
السعودية	٨ ر	عمان	٩٠٠ ب	مصر	٨٠٠ م	Cyprus	P 1

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية

PAGAN HEART

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ ـ جوهرة لاثنين

بدأت صيحات الوداع تخفت، وأخذت الأشكال الآدمية التي تلوح على رصيف الميناء تتضاءل الى أشباح في حجم الدمى، وظهرت في الخلفية هياكل من الأبنية الرمادية الكئيبة، بينما الهيكل العريض للسفينة «فولكانيا» يشق المياه. وكان ذلك يمثل للبعض مجرد ابحار آخر، وللبعض لحظة من العمر وخطوة متجهة الى مستقبل جديد.

قبضت «كريستي ايرفن» على الحاجز أمامها متطلعة الى شق المياه التي كانت تتسع، ثم عادت تنظر الى رصيف الميناء، وقد عجزت للحظة عن رؤية أسرتها وأصدقائها، ولكنها بدأت تلمح لمعة الشال الأصفر الذي كانت تضعه أمها، والومضة القرمزية لمعطف «جون» الواقي من المطر، وتنهدت في ارتياح، وأخذت تلوح من جديد بقوة، تحاول أن تطيل اللحظات الأخيرة قبل أن تنعدم الرؤية أمامها، وتكاد لا تتعرف على شيء بسبب تباعد المسافة وهطول المطر.

نعقت طيور النورس كأنها في حداد، وعلا الصوت الحاد لسلاسل السفينة، وبدأ الناس ينصرفون عن الحاجز، واختفت الومضة القرمزية الضئيلة، وتركت «كريستي» يديها تسقطان عن الحاجز. لقد قضي الأمر ولا رجعة بعد الآن.

بقيت واقفة تحدق في المياه الرمادية المتموجة، غافلة تماماً عن برودة الجو وهي تكاد تكون وحدها على ظهر السفينة. انهم الآن في طريق عودتهم الى السيارة، ولا

حديث لهم بالطبع الا عنها، وهم يعجبون لأمرها. لقد بدأ يشتد بأسها القلق. وهي تفكر في فترة الانتظار لأول رسالة وعدت كريستي بإرسالها اليها. أما جون فتحاول إشاعة المرح الذي أخفقت كريستي في اقناعهم به بسبب تصميمها العنيد على خوض تجربة السفر.

هل تكون هذه الخطوة أكثر خطوات حياتها جنوناً؟ هل هي حقاً كما قالوا عنها؟ حمقاء متهورة. وهل كان الأمر يختلف لو أن القطيعة بينها وبين ستيفن انتهت على نحو سحري؟ أو أنها لم تحدث على الاطلاق؟ وهل كان عليها أن تصفح عنه، وأن تلقي بنفسها بين ذراعيه وتمضي قدماً في ترتيبات الزواج ناسية تماماً كل شيء عن العم تول والرسالة التي جاءت على نحو غير متوقع؟

لم يكن من المؤكد أن رغبة التجوال القديمة التي كانت تراودها قد انتهت تماماً. لقد نامت وسكنت فقط وبعثتها هذه الرسالة الى الحياة قوية ملحة. فهل كان الزواج يستطيع أن يطفئها تماماً، الى الأبد؟

وأفاقت كريستي على الواقع برعدة مفاجئة، وتذكرت السيدة الن، التي كانت لغزاً خفياً يسخره لها القدر فبدأت كريستي، بدافع من الشعور بالذنب، تسرع الى الدرج الذي يؤدي الى جانب آخر من ظهر السفينة. فلولا السيدة الن لما نجحت في أن تكون هنا اليوم.

ووجدت السيدة العجوز تجلس في القمرة بهدوء واستكانة. وقد بدأت تتناول شاي العصر. والتفتت السيدة برأسها في تساؤل نحو الباب، بينما دخلت كريستي، وقالت:

«أهذه أنت يا عزيزتي كريستي؟ تعالي وتناولي الشاي. لا بد أنك تشعرين بالبرد».

«كلا. أنا على ما يرام. هل أنت كذلك؟ انني لم أقصد أن أتركك وحدك هذا الوقت الطويل».

قالت ذلك وعبرت القمرة بسرعة، واطمأنت الى أن الصينية في وضع سليم،

وأن السيدة العجوز بأمن من أن تلسعها سخرية الأشياء، لأن السيدة آلن عمياء.

كانت السيدة آلن في طريقها لتقضي عطلة طويلة مع ابنها الذي يعمل في المجلس الدولي للعلوم ومقره الآن في برمودا. ولم يشأ أن يجعل أمه تقوم بالرحلة وحدها، وكانت تخاف الطائرات، ولهذا تم الترتيب بوساطة زميل لوالد كريستي على أن تصحبها لتكون في رفقتها. وكان معنى هذا أن تبدأ رحلتها قبل ثلاثة أسابيع على الأقل من موعدها المقرر، ولكن ذلك يسر لها الوصول الى هدفها، وجعل لها ما حدث ممكناً، كأنما هو بإرادة من القدر.

وبعد تناول الشاي، ساعدت كريستي السيدة آلن على إخراج حاجياتها من الحقائب، والالمام بجوانب القمرة، قبل أن تذهب الى قمرتها لتتفقدها. ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وعندما انتهت ترتيب حاجياتها في أماكنها وقفت تنظر الى صورتها في المرآة البيضاوية، وتراقص في عينيها الزرقاوين ظل من الخوف، واحست بعدم الارتياح يضاعف شكوكها. فلنفرض أنها أصيبت بدوار البحر ولم تستطع رعاية السيدة آلن بالشكل الملائم؟ فلنفرض أنهم كانوا جميعاً محقين في تحسبهم لكارثة ينتهي بها الموضوع كله؟ وفي أنها تكون محظوظة لو كان كل ما تعانيه هو مجرد الاخفاق في إنجاح أغرب تركة ورثتها فتاة؟ ولكنها لن تخفق. ستعمل بجد واجتهاد على نحو لم تعمل به من قبل، لمدة عام. فهذا هوالحد الذي اتفقت عليه مع والديها. وفي نهايته ستسلم العمل لأحد أو تبيعه. ولكن اذا فشلت، فما باعدت بينها وبين هذا الخاطر. لقد اتخذ والدها ترتيبات لابتياع ثمن تذكرة عودتها مسبقاً، وهي لم ترد ذلك ولكن قبولها بمثابة منفذ للهروب، وخاصة انه الشرط الوحيد الذي أبى والدها بأن يذعن بشأنه. فهم لا يعرفون الا القليل عن العم تول الذي مات بعد بضع ساعات من اصابته بنوبة قلبية، وترك كل ما يملكه لابنة أخيه كريستي بما في ذلك شركة لتصدير محار البحر تقع على جزيرة كاليندا الصغيرة في المحيط الهادي.

عجزت في البداية عن تصديق الخبر. كانت لا تزال مثقلة الاحساس بالتعاسة بسبب قطيعتها مع ستيفن، ولم تفلح في اخراجها من مشاعرها محاولة أخيها الصغير وهو يمازحها بشأن الرسالة التي حملت النبأ الغريب. «انها تبيع محار البحر على الشاطئ». لا تزال تسمع صوته الصغير يداعبها بهذه الكلمات، ثم نقضها عندما أخبرها والدها انه عليها التفكير في الترتيبات التي ستقوم بها فيما يتعلق بتركة العم نول الغريبة. ثم قول جسون، وهي أخف أفراد الأسرة ظلاً وأحلاهم تفكيراً: الأمر واضح تماماً على كريستي الذهاب الى كاليفورنيا لترى الأمور بنفسها وهذا يعني أن تنفق الجنيهات الحسيابة التي ادخرتها للزواج على أجر السفر. فهذا هو أفضل مقر لقلب مزلزل.

وبدأ كل شيء يحدث بسرعة، وكأن هذا كله من تدبير القدر.

شعرت ببعض من الاطمئنان، فعادت الى السيدة آلن لتجدها تعاتبها برقة قائلة:

«ساكون على ما يرام تماماً يا عزيزتي. ويجب أن يكون واضحاً بيننا من البداية أنني لا أنوي التصرف كمقعدة عجوز غريبة الاطوار تتوقع قيامك بخدمتها طوال الرحلة. كل ما أحتاج اليه هو مساعدتك في اصطحابي الى حيث تناول وجبات الطعام حتى لا أسكب شيئاً أو أضايق أحداً. وفيما عدا ذلك، فالمضيفة ستتولاه. اذهبي أنت واستمتعي بوقتك مع سائر القوم».

قالت كريستي بحزم:

«سيكون هنا وقت أيضاً. انني بالطبع لن أتركك بمفردك وقتاً طويلاً. فما كنت هنا لولاك. ولهذا وحده فأنا ممتنة لك».

ابتسمت السيدة آلن ولم تشأ أن تضغط عليها. ولكن في اليوم التالي عندما جلست كريستي تقرأ كتاباً، أرادت السيدة آلن أن تعرف لماذا لم تذهب الى قاعة الرقص. وقالت وهي تبتسم، وكأنها تتذكر الأيام الخوالي:

«يقولون انها قاعة فاخرة، مطعمة بالنجوم البللورية ومزودة بالقطيفة الزرقاء

القاتمة. جو شاعري جداً. وعندما كنت شابة، كان حلم حياتي القيام برحلة طويلة الى المناطق الاستوائية، وأن أقابل ضابطاً شاباً رشيقاً يقع في حبي من أول نظرة. الأمور لا تحدث في الواقع على هذا النحو فعندما خرجت في أول رحلة بحرية لي، أصبت بخيبة أمل. كان الضابطان الشابان الوحيدان مرغوبين من جميع الفتيات على نحو أصابهما بالغرور بشكل لا يحتمل. وكان الرجل الوحيد الخالي على ظهر السفينة كلها الذي له ميول رومانسية، مطرباً كهلاً من مطربي الأوبرا. كان يضع على رأسه باروكة ويغني توسكا بصوت عال في طول الباخرة وعرضها».

«لا يزال الأمر يبدو مسلياً بالنسبة لك».

«أوه، حقاً. ولكنني أظن أن فكرة التسلية واللهو في أيامنا هزيلة بالنسبة لكم يا شباب اليوم. أنتم بالغو الخبرة في مواجهة تحدي الحياة».

وتنهدت السيدة آلن وأصلحت الشال حول كتفيها، واستطردت:

«أنت مثلاً يا عزيزتي. عمرك ثمانية عشر عاماً وتقطعين الطريق حول العالم للعيش في جزيرة صغيرة، ومتابعة عمل لم تعرفي تفاصيله بعد. بين أغراب وبعيدة آلاف الأميال عن أسرتك وعن أصدقائك. فماذا يحدث اذا وقع مكروه؟ لا أعني أنه سيقع يا عزيزتي، ولكنني لو كنت مكانك منذ سنوات طويلة مضت لأصيب أهلي بالهستيريا لمجرد الفكرة. وكان يمكن أن ينتهي الأمر بارسالي لمكان مأمون في الريف، مع عمة عجوز، ووقف مصروفي حتى أثوب الى رشدي».

ابتسمت كريستي وقالت:

«حاولوا أهلي الشيء نفسه تقريباً، غير أن المسألة كانت تتعلق بشقيق أبي وبأملاك لاتباع ولا يحق لغيري التصرف بها».

«نعم، سمعت ذلك. وربما بدا الأمر فرصة من السماء لتشغل بالك، ولكنه أسلوب غريب للنسيان».

تنهدت كريستي وحدقت بدون أن ترى شيئاً في مياه الأطلنطي الرمادية،

وقالت:

«أعرف ذلك، ولكن ليس هذا كل شيء. كنت دائماً توّاقة الى السفر، ليس الى السفر وحده ورؤية بلاد جديدة ولكن لمشاهدة طرق حياة مختلفة من الصعب أن أشرح ذلك. كان يساورني الشعور دائماً بأن هناك شيئاً ينتظرني، لا أعرف ما هو، ولكنه نوع من النداء يجعلني قلقة. وعندما أحببت ستيفن وقررنا الارتباط، ظننت ان ذلك سيشفيني من هذه الأشواق. كان يقول لي أننا سنرحل الى كل مكان، وسأتخلص من مشاعري عندما أكتشف أن الأماكن الرومانسية هي مجرد سيارات وأبنية جديدة من الاسمنت، وأن الأهالي يعرضون ما عندهم ليكسبوا من السياح ما يقتنون به أجهزة الترانزستور والتليفزيون. قال ستيفن ان التكنولوجيا تغير القرون في مدى اعوام، وان علينا قبول ذلك سواء أردنا او لم نرد.»

«ستيفن يبدو شاباً عملياً جداً.»

قالت كريستي بمرارة:

«أجل، ومن المؤكد أنه يدور أماكن كثيرة، ولكن بدوني.»

«انه خبير في الكومبيوتر، أليس كذلك؟»

أومأت كريستي برأسها وقد بدا الانشغال في عينيها، وقالت:

«كثيراً ما أتساءل كيف يمكن أن يتكيف مع العم نول؟»

«العم نول هو شقيق والدك الأكبر، أليس كذلك؟»

أومأت كريستي برأسها مرة أخرى، وأجابت:

«الشقيق المختلف، والذي يقول ان معظم العائلات فيها شخص مختلف وانني أخذت عن العم نول حبي للترحال. كان ابي اصغر من أن يجند في الحرب، ولكن العم نول خاضها، وخلال حرب الصحراء صادق أحد الرفاق، وكان مثله قلقاً. وعندما انتهت الحرب قررا الطواف حول العالم. ثم التقى نيكولاس بفتاة واستقر، وعاد عمي الى البيت مقرراً الاستقرار بدوره، وكانت

هذه اول مرة أقابله فيها، ولن أنسى هذا اليوم أبداً.»

مدّت السيدة آلن يدها الى حقيبتها وأخرجت بعض حلواها المفضلة، وتساءلت:

«أكنت لا تزالين طفلة؟»

وأضافت:

«خذي واحدة يا عزيزتي من هذه الحلوى.»

«أشكرك. كان ذلك يوم عيد ميلادي السادس، وكنا نشرب الشاي عندما سمعنا طرقة على الباب، واذا بهذا الرجل الكبير الذي لوحته الشمس حتى أصبح في مثل لون الخشب المهوجني يدخل علينا. خافت جون التي كانت لا تزال في الرابعة من عمرها بسبب صوته العميق القوي، ولكنني أولعت به على الفور، وشعرت بأنني كنت أعرفه دائماً. كان آتياً لانه يوم عيد ميلادي، ولكنه لم يكن قد أحضر شيئاً فاندفع خارجاً الى المحل المجاور، فلم يجد فيه الا علباً صغيرة في الوقت الذي أراد لي فيه علبة كبيرة مزدوجة الشريط.»

وتوقفت كريستي برهة وقد غشي عينيها الحزن، ثم قالت:

«ولم يهمني الأمر على الاطلاق، لأنه أعطاني شيئاً أحببته أكثر من ذلك. محارة استوائية ضخمة أراد أن يعطيها لوالدتي، ولكنها اختارت الشوكولاته بدلاً منها. سحرتني المحارة بلونها القرنفلي الجميل، وثنياتها الحلزونية ذات الأخاديد، وقربها العم نول من أذني وقال لي اذا أنصتّ بإمعان، فسأسمع موسيقى البحر.»

قالت السيدة آلن وهي تسترجع ذكرياتها:

«كان لعمة لي محارة فخمة، تضعها فوق ركن المدفأة. وكان هذا الطراز سائداً في العهد الفكتوري. هل بقي عمك لفترة طويلة؟»

«نحو ستة أشهر، ثم لم يستطع تحمل الشتاء البارد فرحل. وكاد ينفطر قلبي حزناً لذهابه. لقد كان يدللني على نحو كبير وكنت مدلهة به. ولم يعد لخمس سنوات أخرى، وعندما جاء بقي أسابيع قلائل، ثم لم أره بعد ذلك ابداً. وقد اعتدت

الكتابة اليه ولكنه كان اسوأ كاتب رسائل في العالم. وكان آخر ما سمعته منذ عام، بعد أن كتبت اليه أبلغه بخطوبتي الى ستيفن. ان طلب مني ألا اتزوج لخمس سنوات أخرى على الأقل، وأنه يستطيع بدون أن يقابل ستيفن، الحكم بأنه ليس الرجل الذي يصلح لي. لقد كان محقاً كما ثبت بعد ذلكولكنني ضحكت وقتئذ.»

«كل وشأنه. يجب ألا تصدر على أحد أحكاماً سريعة يا عزيزتي.»

أومأت كريستي برأسها وقالت:

«أعرف ذلك. ماذا يهم ان كان عمي قد ادار ظهره لما تسميه بالحياة المتحضرة؟ كان سعيداً، وكانت تلك حياته، ولم يؤذ أحداً. ولكن والدي يقول انه ليس أفضل من متسكع على رمال الشواطىء، يواجه متاعب العيش عندما يصبح مفلساً في الفترات التي يتعطل فيها عن العمل. الى أن بدأ تجارة المحار الذي اكتشف بالصدفة أن هناك طلباً عليه. لا بين الجامعين فحسب بل كذلك لدى موردي الاشغال اليدوية. فما لبث أن أصبح لديه زبائنا يتعامل معهم بالبريد وقال انه لا يريد من الحياة أكثر من ذلك، ولن يضطر الى مغادرة جنته في الجزيرة ما دامت الأصداف تتوهج على شاطئها اللازوردي.»

وتوقفت عندما أدركت فجأة أنها أطالت الحديث. وتطلعت الى السيدة ألن لتجد جفنيها قد انسدلا. وكانت على وشك الانسحاب بهدوء، والتنزه على ظهر السفينة، ولكن السيدة ألن التفتت قائلة:

«وهل تأملين أن تكون جنة هذه الجزيرة في انتظارك؟»

«حسناً، انني أتطلع الى شمس لا نهاية لها، ومياه دافئة أسبح فيها على عتبة داري.»

وبينما كانت كريستي تلقي بهذا الرد الخفيف، أدركت أنه ليس ما تريد السيدة ألن سماعه، فأضافت بسرعة:

«بالطبع لا أتوقع كسلاً مثالياً، ولكنني مستعدة للعمل بجد بالغ، الى جانب

اللهو.»

«انا واثقة من ذلك، ولكنني لم أكن أعني هذا. تعالي يا كريستي، فثمة شيء أريد أن أقوله لك.»

امتثلت متعجبة، ووقفت الى جانب مقعد السيدة العجوز، التي مدت يداً هزيلة تتلمس ذراعها.

«آمل أن تصفحي عني لصراحتي معك يا عزيزتي. ولكن يجب أن أقول ما عندي، اننا لا يعرف أحدنا الآخر منذ وقت طويل، ولكن هذا يساعد المرء أحياناً على تلخيص ما يريد قوله بوضوح أكثر. كذلك فقدان البصر ينمي حواس المرء الأخرى فتصبح أكثر حدة. وانا أشعر بأنني أفهمك جيداً. لقد مررت بتجربة رومانسية شقية، وألقى القدر بفرصة غريبة في طريقك بحثاً عن الاثارة، بل وحتى الخطر، ولكن معظمنا إما أن يكبر على هذه المشاعر وإما يخضعها في خضم الحياة الحقيقي، بإحسان عملنا، وربما بالزواج والأمومة، وبمصادقة الارتياح في الحب والرعاية. فامضي قدماً يا كريستي في سعيك الى حياة طيبة، ولكن كوني موقنة من أنها لن تكون بديلاً عن العيش الحقيقي.»

قالت كريستي في صوت خافت:

«لست أعتقد أن الأمر سيكون أبداً على هذا النحو.»

«انني أتساءل. لقد أدركت بعض الصفات في طريقة حياة عمك، فهل تجدينها في طريقة حياتك؟»

«أعتقد ذلك. كان الأمر مختلفاً بالنسبة لعمي في أي حال. كان رجلاً، والرجال يتوقع منهم الناس أن يضطلعوا بمسؤوليات الحياة التقليدية، ويتهمونهم بالاخفاق اذا لم يفعلوا ذلك. ولكنه خاض حرباً ووهبه ذلك بصيرة تكشف نفاق الناس. ولست ألومه لأنه أراد أن يلوذ بالفرار.»

«نعم، الفرار. أليس هذا هو ما نسعى اليه جميعاً في وقت ما من حياتنا؟ الفرار الى السعادة. انها دائماً هناك عند المنعطف، فوق الجبل، دائماً هناك. ولكن المرء لا

يستطيع أن يجد السعادة في فراغ تذكري ذلك يا عزيزتي. ان الناس هم الذين يخلقونها لا الأماكن ولا الممتلكات. ولذلك فالعكس صحيح. ان الناس هم الذين يخلقون لنا أعظم سعاداتنا».

كانت رحلة بلا أحداث. لم تلبث أن مرت بسرعة بعد أن زالت العاصفة الثلجية التي استغرقت اليومين الأولين. مرت بسرعة مفرطة أدركتها كريستي عندما فكرت في أنها تقرب بينها وبين فراق السيدة آلن التي كانت بعد عظتها القصيرة قد امتنعت عن الاشارة الى الموضوع، وأصرت على أن تشارك كريستي في أكثر ما تستطيعه من ألعاب وسائر الأنشطة التي تزخر بها الحياة اليومية في السفينة. وهكذا جاء آخر يوم، وشعرت كريستي شعوراً غريباً بالحرمان عندما انتهت مظاهر التوديع، وأبحرت السفينة على مياه المد في تلك الليلة الدافئة المقمرة، وقد احتل رجل غريب القمرة التي كانت تسكنها السيدة آلن.

الا أن الجزء الأكبر من الرحلة كان لا يزال باقياً قبل أن تصل كريستي الى وجهتها. وعندما نزلت من السفينة في بناما كانت المرحلة التالية من رحلتها بالطائرة الى بابيت ثم الى تاموتوا، ومن هناك بالقش الى جزيرة كاليندا التي تقع تجاه الساحل. وكانت كل خطوة تنقلها بعيداً عن موطنها وقريباً من المجهول. وعندما هبطت من الطائرة في تاموتوا كان الارهاق من السفر قد استبد بها. ولكن كانت هناك مفاجأة سارة تنتظرها ممثلة في رسالة بالبريد الجوي من والدتها.

أخذت الرسالة الى غرفتها في الفندق وكادت تبكي وهي تقرأها، لا بسبب حزن أو أسى في محتوياتها ولكن لمجرد وصولها في لحظة كانت أشد ما تحتاج فيها الى العزاء. كانت الاثارة والترقب قد استخفا بمشاعرها خلال الرحلة الطويلة، ولكنها هنا في غرفة لا تمت اليها بأحد الفنادق، بعد رحلة بالتاكسي استغرقت عشر دقائق عبر ظلام غريب، أثر هبوط الطائرة في الليل. لماذا لم يحدث ذلك نهاراً، حتى

تستطيع أن تتجاوز بأنفها وبصرها الروائح والأصوات غير المألوفة في جزيرة استوائية؟ هل بدا عليها الضياع مثلما كانت تشعر على غير ما كان عليه رفاق السفر الذين بدوا متماسكين، غير متأثرين بشيء، مولين تماماً بسن وجوههم وأسباب مجيئهم.

ألقت بجسمها على الفراش وقبضت على الرسالة بشدة. يجب ألا تذعن لمشاعر الخوف بعد أن أوشكت الوصول الى هدفها. غداً في الصباح تزور الوكلاء الذين بعثوا بالنبأ الى محامي والدها. هم يستطيعون أن يخبروها بكل ما تحتاج الى معرفته، وأن ينصحوها بأفضل الطرق لتولي إدارة شركة توريدات كاليندا للأصداف. تاموتوا ليست، لم أن يقولوا لها، وهنا أهم أين تجد أصدقاء عمها. فلا بد أنه عرف أناساً كثيرين خلال السنوات السبع التي عاشها في كاليندا. آه، لو كان لا يزال هناك! لماذا حدث ذلك قبل أن تتاح لها فرصة رؤيته مرة أخرى؟ هناك أشياء كثيرة كانت تريد أن تسأله عنها، أشياء كثيرة كان يمكن أن يشرحها، قصص يرويها أو أماكن يكشفها لها. فقط لو...

نهضت الى حقيبتها وأخذت ما تحتاجه فقط لليلة، وبحثت عن العلبة التي كانت تضم الرسائل والصور الواردة من عمها. وظلت برهة تتفحصها. صورته وهو يجلس في شرفة بيت شخص ما وهو يقف على الشاطئ، وبقربه اثنان من الأطفال البولينيزيين وهو أمام كوخ مسقوف بالقش. وكان الرمل يبدو ناصع البياض. قريباً ترى هذا كله. ستعرف هذه الأماكن على الطبيعة وتملأ بها الفجوات التي كانت تسدها بخيالها. وما لبثت أن أعادت الصور والرسائل الى مكانها ووضعت في حقيبتها فقط رسالة المحامي. كان فيها عنوان الوكلاء. ستحتاج اليها غداً كمزيد من الأوراق الشخصية التي تثبت بها أنها ابنة أخ نول ايرفن. وبعد ذلك فانها لن تضيع لحظة واحدة في تفقد معالم تاموتوا، بل ستأخذ المفاتيح بعد انتهاء الشكليات وتتوجه مباشرة الى كاليندا. من المؤكد ستكون هناك رسائل قد اجتمعت، طلبات توريد واستفسارات. وهي محظوظة اذ

للاجابة مرة أخرى.

ودخلت المحل المكتظ بعد ذلك بدقائق، ودفعت الى لوني بتبورن أوراقها قائلة في عزم وتصميم:

«أنا كريستي ايرفن. وهذه تثبت شخصيتي. فهل لك أن تفحصها وتعطيني مفاتيح بيت عمي من فضلك. ثم تخبرني أين أذهب لأجري ترتيبات الدفن. فسأذهب الى كاليندا مباشرة هذا الصباح.»

حدق فيها الرجل الغليظ ذو الملابس الرثة، ثم أشعل عقب سيكارة قائلاً:

«حسناً حسناً. هذا أمر غير متوقع. مرحباً بك في بيتك يا فتاتي.»

ثم أشار الى باب في الخلف عليه ستار من الخرز وقال:

«الأفضل أن تأتي وتقابلي شريكي. وليكن الله في عونك اذا اصيب بنوبة قلبية!»

«ولماذا يصاب بنوبة قلبية؟ ثم انني أفضل ألاّ يناديني أحد بيافتاتي. من فضلك.»

ضحك ومد يده ليصافحها قائلاً:

«كيف حالك يا آنسة ايرفن. لست أشك في أنك وريثة نول الهرم. تعالي.»

وجدت نفسها في مكتب صغير خانق، اغلقت نوافذه وبدت فيه الفوضى. وجلس الى مكتب قديم متداع، تناثرت عليه الأوراق، رجل قصير سمين ذو وجنتين مترهلتين شاحبتين ورأس أصلع.

«خمن من هذه، انها وريثتنا الصغيرة!»

«ماذا! لا بد أنك تمزح.»

«لست أمزح، هذه حقيقة.»

نهض الرجل السمين وحدق في كريستي:

«هل أنت ابنة أخ نول ايرفن، من انكلترا؟»

قالت وهي تتنهد بغيظ:

«نعم.»

فجلس في مقعده قائلاً:

«ولكنك لست طفلة. الله...»

قالت في استياء:

«بالطبع أنا لست طفلة. من أوحى اليك بهذه الفكرة؟»

قال السيد ثوب، وهو يحاول أن يتذكر صورة في ذهنه:

«عمك. لقد أرانا صورك. كان فخوراً بك. يحدثنا عن نيته في أحضارك الى هنا لقضاء أجازة. ولكنك كنت تبدين في الحادية عشرة في الصورة التي أطلعنا عليها.»

«كنت في نحو الحادية عشرة في آخر صورة أعطيناها لعمي نول. وكان هذا في آخر زيارة قام بها لانكلترا.»

«والفتيات يكبرن بسرعة، وبشكل جميل أيضاً. أجلسي يا آنسة ايرفن، وخذي شراباً ونحن نبحث الموضوع.»

«أشكرك... لا شراب.»

جلست على كرسي أنّ لجلسها، وقالت:

«سيكون كل شيء على ما يرام. أليس كذلك؟»

وساد صمت، وبدأت شكوك كريستي تتحول الى يقين. فكررت قولها:

«أليس كذلك؟ لم يحدث خطأ ما؟»

تبادل لوني وبن ثوب النظرات، ثم قال بن:

«لا خطأ. لقد ترك عمك كل شيء يملكه لك. لم يكن ذلك بوصية ملائمة. ولكنه بيان مخطوط اذ أنه كان يحتضر وقتئذ. ولكنني كنت أحد الشهود وسيكون الأمر قانونيا تاماً.»

أومأت كريستي برأسها، فذهب يملأ كوباً ورقيا بالماء من صنبور في ركن الغرفة وقال:

«لا نستطيع أن نخبرك بما تركه نول من مال سائل لأننا نحن أنفسنا لا نعرف ذلك. لقد أرسلنا فقط وصيته، مع مذكرة بشرح ما حدث، الى العنوان الذي أعطانا إياه المحامون في لندن. كنا فقط رفاق عمل مع عمك، وكنا نمثله كوكلاء، في الحالات التي يحتاج فيها الينا، ولكننا لسنا خبراء قانونيين اذا كنت تفكرين في المساومة.»

تطلعت كريستي اليه قائلة:

«مساومة؛ لست أفهم. ولماذا أريد أن أساوم ما هذا؟»

قال لوني بعد برهة صمت قصيرة:

«أنا شخصياً أقبل العرض لو كنت مكانك. هذا أنسب عرض يمكن أن تحصلي عليه فيما أعتقد.»

«عرض؟ أي عرض؟»

رأت حيرتها تنعكس في الوجهين اللذين التفتا اليها. ثم فرقع لوني أصبعه قائلاً:

«في أي يوم غادرت موطنك؟»

«الرابع عشر.»

«الثلاثاء الماضي. لا عجب اذاً. هذا يفسر الأمر. الرسالة يمكن أن تكون قد وصلت الآن الى لندن. كنت أود أن تعلمينا بحضورك.»

«كان يجب أن أرسل برقية. ولكنني أعتقدت أنكم حصلتم على الرسالة الثانية من لندن في الوقت الذي وصلت فيه. قررت المجيء، وطلبت من المحامين أن يكتبوا اليكم. ألم تصلكم تلك الرسالة؟»

«كلا، ليس بعد. لقد وصلتنا الرسالة الاولى التي ذكرتها وبعثنا اليك برقية أبلغناك فيها بالتطورات الجديدة. ان البريد يستغرق وقتاً طويلاً في الوصول الى هنا يا آنسة ايرفن. فلدينا رحلة طيران واحدة في الأسبوع ورحلتان بالزورق كل شهر»

«نعم، ألمس هذا كله الآن. ولكن ما هذه التطورات؟»

«هناك عرض بالنسبة لعمل عمك.»

قالت بلا تردد:

«لا أريد أن أبيع.»

«ولكن ماذا في وسعك أن تفعلي غير ذلك؟»

«أتولاه بنفسي. هذا ما جئت لأجله.»

تطلع كل منهما الى الآخر وبدأت كريستي تدرك بغتة تيار الهواء القادم من المروحة المثبتة في السقف. فمسحت خيط الرطوبة من على حاجبيها، وقالت من جديد:

«انني لن أبيع.»

هز بن رأسه قائلاً:

«ليس في وسعك القيام بالعمل وحدك. ليس لفتاة مثلك. فأنت لا تعرفين الجزر.»

بدا على تقاطيعها التصميم:

«أستطيع أن أتعلم، فانني لم أقطع هذه المسافة لأستدير عائدة مرة أخرى.»

قال لوني ملاطفاً:

«لا حاجة بك الى ذلك. خذي المائتين وخمسين جنيهاً وأنفقيها على أجازتك. طوفي بالجزر، شيء ما تذكرين به عمك قبل أن تفترقي على ما تناسيك وتستقري.»

«مائتان وخمسون جنيهاً؟ ان هذا المبلغ لا يكفي حتى لتغطية نفقات عودتي بطريق الجو.»

هز لوني كتفيه ونظر في ساعته.

«سأقول لك شيئاً. سنتخذ الترتيبات لتلتقي بمات، وهو سيخبرك بالأمر، وعندئذ يمكنكما أن تتجادلا فيه.»

«مات من؟»

«مات دينهام انه أقرب جيرانك.»

«وهو يريد شراء تجارة الأصداف بألفين وخمسين جنيهاً؟ يا له من صفيق!»

تنهد بن ووضع يديه الغليظتين على المكتب قائلاً:

«اصغ الي يا آنسة ايرفن. من الواضح أن هناك الكثير الذي يجب أن تتعلميه. ولنبدأ بالقول ان عمك استدان من مات ماتي جنيه عندما بقي مات هنا في العام الماضي، وذلك لشراء الزورق. وقد استخدمه مات بالطبع، وكانت علاقته طيبة بنول ولكن نول لم يسدد ما اقترضه.»

قالت كريستي وهي مشدودة الأعصاب تحاول أن تخفي خوفها:

«اذا كان الأمر كذلك فسأعمل على سداده قبل أي شيء آخر ولكنني أرفض البيع.»

قال لوني:

«انك لم تشاهدي المكان بعد وقد تغير بن رأيك عندما تشاهديه.»

ألقى بن بنظرة تحذير الى شريكه وقال:

«دعني أنا أعالج هذا الأمر انها جادة تماماً فيما تقول.»

ثم التفت اليها قائلاً، وهو ينحني نحوها بثقة، وقد أسقط كل مظاهر الشكليات

«اسمعي يا فتاتي... هناك أيضاً عقبة أخرى.»

تأوهت كريستي في أعماقها وهي تسائل نفسها. كم هناك من عقبات أخرى يا ترى؟

«مات يعتقد أن الوافدين الجدد الذين سيعيشون بتجارة الأصداف هذه سيتدخلون في عمله. أرجو ألا تخطئي فهمه. لقد كان يحب عمك وكانت علاقتهما طيبة ولكن الآن.. انه يريد أن يصفقه، وأن ينهي موضوع هذه التجارة، وأن يبقى في سلام. وأنا في أية حال لست موقناً من أنه ليس على صواب. ولكنك لن تفلحي، لن تفلح طفلة صغيرة جاءت لتوها من انكلترا. انه ليس الاطار الملائم لك، وستتحققين قريباً من أننا على صواب.»

كانت كريستي تغلي في توتر بالغ، والغضب في داخلها يوشك أن يصل الى نقطة الغليان. وقد سمعت آخر كلماته بالكاد فصاحت:

«تعني أن هذا الـ مات ديبهام يريد أن يقذف بي بعيداً، وأن أغلق تجارة عمي؟ حتى يمكنه أن يبقى في سلام؟»

«هذه هي الفكرة العامة.»

«حسناً. انه لن يحصل على سلام من جانبي!»

قال لوني وهو يوسع لها في الابتسام:

«لقد بدأت أعتقد ذلك.»

وقال بن:

«انه يقوم ببعض البحوث الهامة هناك بمساندة من الحكومة.»

انتفضت غضباً:

«لا يهمني ما يفعل. يستطيع أن يستمر فيما يعمل، مثلما أنوي أن أستمر فيما أعمل.»

تبادلا نظرات طويلة ثم قال بن بحذر:

«هل تعرفين شيئاً عن كاليندا؟ عن كيف عاش عمك هناك؟»

«أعرف بالطبع. لقد جاءني بكثير من الصور، وهي تبدو كالجنة!»

قال لوني:

«هذا يتوقف على فكرتك عن الجنة. وهي ليست فكرتي.»

وقال بن في سخرية، وقد رق صوته:

«أعتقد أن لوني يحاول أن يقول لك أن كاليندا تفتقد وسائل الراحة العصرية.»

«أتعني أنه لا يوجد بها محلات ماركس وسبنسر؟»

فصاح لوني أمام برودة ردها:

«لا تقولي اننا لم نحذرك.»

«سأتذكر ذلك دائماً. ولعل الأفضل أن نحضراه هو كذلك».
ومد لوني يده الى التليفون قائلاً:
«هل لنا أن نفعل ذلك؟ انني أتساءل عما اذا كان هناك اليوم. هل أحاول الاتصال به؟ قد يكون في محل ميلاني».
ولكن بن هز رأسه قائلاً:
«دع مات لي. انني سأحدثه».
قال لوني بنوع من التوقع الخبيث:
«لا أستطيع أن انتظر لأرى وجهه أو...»
أشار بن بيده ليمنعه من مواصلة حديثه، وقال:
«لا... دعها تسعد بأرائها ان كاليندا جوهرة صغيرة. ومن المحقق أنها كبيرة على نحو يسعهما معاً».
كانت هذه نفس مشاعر كريستي. ولكن هل الجزيرة كذلك حقاً؟

٢ ـ شبح في الكوخ

تباعدت كاليندا خلال دقائق من وصولها الى أعالي البحر. كانت تبدو في البداية كزمردة خضراء صغيرة على قماش أزرق لامع، وهي تنظر اليها بشوق من تحت مظلة اللنش الذي تركبه. قالت للوني، الذي كان يرافقها للاطمئنان على سلامة وصولها:
«إننا لا نقترب».
«بل نقترب يا فتاتي».
وابتسمت وهي تتقبل هذا اللفظ وتعتبره مظهر ود حقيقي وإن كان خشناً. وقالت:
«لا أستطيع الانتظار لأرى إن كانت حقاً في مثل الصورة التي أعطانا إياها عمي. لقد التقطها من زورقه خارج البحيرة، وهي تبدو مثل مشاهد الصور السياحية. ولكن المرء لا يجد هذه المشاهد في مثل كمال الصور عندما يصل اليها».
«هذا المشهد في مثل جمال صورته، وبالألوان. انتظري حتى تري الطيور والسمك في البحيرة. هل تجيدين الغطس؟»
«ليس بعد، ولكنني سأتعلم».
وعادت بصرها المتألق الى الزمردة، تود أن تقترب منها أكثر، ببحيرتها الصافية، وشاطئها المحفوف بأشجار النخيل، وطيورها الزاهية الألوان في انطلاقتها وسط خضرة حية. ووراء هذا كله زرقة البحر وسمائه. ولم تلحظ اضطراب البحر وهم يقتربون من الجزيرة أو تسمع هدير الموج الصاخب، وقائد اللنش يبحر بمهارة بين الممرات. وقال لوني:
«لو تطلعت إلى الخلف لرأيت قمم تاموتوا الثلاث العالية».
فصاحت بعد نظرة عابرة من فوق كتفها:

«لا أريد أن أنظر الى الخلف. أود أن أتطلع الى كاليمتي الصغيرة ـ هل هذا بيت عمي؟»

«كلا. هذا معمل الأحياء المائية وبيت مات».

فأغفلت النظر الى بيت مات والمجاورته الى المسكن الآخر الأصفر الذي كان يقع على مسافة أبعد منه. يكاد يكون على الشاطئ، نفسه. وقالت وهي تشهق «إن له سقفاً من القش».

«معظمهم كذلك. ولكنها ثابتة تماماً. هناك امتداد له مكسو بألواح الخشب وليس في وسعك أن تريه من هنا. وكان عمك...».

وضاعت كلماته والزورق يرسو على الحصباء المرجانية. وقفز الفتى متناولاً حقيبة كريستى الى الشاطئ، ثم عاد ليأخذ الثانية. وتطلعت الى التموجات والى حركة الشعب تحت الماء. وما لبث لوني أن حملها كطفلة صغيرة الى الشاطئ، وقال محيياً

«مرحباً بك في كاليندا يا آنستي».

ووقفت هناك بجسمها الصغير في بنطلون من الجينز الأزرق، وقميص بخطوط بيضاء هو في الأصل لقميص أخيها، وقبعة واسعة من القش كانت قد اشترتها قبل أن تغادر تاموتوا وهتفت:

«انني لا أصدق. سأستيقظ من هذا الحلم حالاً».

تناول لوني حقيبتها وهو يشير الى الفتى بأن يتبعها بكيس المشتريات التي كانت قد ابتاعتها، وقال:

«هيا بنا».

ومضى يفسح الطريق تحت أشجار النخيل الى الكوخ المسقوف بالقش، الذي كان قائماً في مكان منبسط يواجه البحيرة، وقال:

«لقد امتدت اليه الشجيرات، ولكن في وسعك إحضار غلامين لتهذيبه».

كان هناك ممر من الحصى يفضي الى درجة واحدة، ومنها الى شرفة صغيرة، في

أحد أركانها التفت بعض النباتات المتسلقة فأخرج لوني مدية وقطع بها النبتة المعترضة، وطلب من الفتى أن يأخذ المدية ويشذب بها أية تعديات أخرى من جانب الطبيعة المسرفة. ثم فتح الباب وتنحى، ترددت كريستي ثم دخلت بيتها الجديد.

كان كما تركه عمها. يتخلله الضوء على نحو يثير الدهشة. وفاتس شعورها بالاثارة، وغص حلقها وهي تطوف بالمكان ببطء. تتطلع الى الأثاث البسيط الضروري والى اللمسات المميزة لبيت في بولنيزيا. كان هناك مقعد من الخيزران، ومائدة صغيرة، وأريكة من الخيزران أيضاً، وموقد صغير قديم أسود بجواره مرجل من قشر جوز الهند. وعلى الجدار غصن مرجاني متفرع وبجواره رسم لغوغان، ورف من الكتب فوق الأريكة. أما غرفة النوم فكان أثاثها أبسط. خزانة أدراج، وسرير حديدي، وصوان، ومرآة للحلاقة على حامل. وجاءها صوت لوني من خلفها:

«ليس هذا موسم المطر لحسن الحظ. وأستغرب وجود العفن. أعتقد أنه يحسن بك أن تعودي الى تاموتوا الليلة وتبقي في الفندق».

فعادت الى غرفة الجلوس قائلة:

«كلا. سأبقى هنا. سأنام على الأريكة الى أن أدبر أمري. لا بد أن تقيم في مكان ما لتعرف ما تحتاج اليه».

بدا لوني متشككاً:

«وكيف ستعالجين مسألة الطهو على هذه البدعة الغريبة الشكل؟»

«سأتدبر أمري».

وابتسمت له كأنما تبغي منه الانصراف وتركها وحدها لتعد شؤونها. ولكنه قال وهو يتفرسها بعينين قلقتين:

«المكان الواقع الى الخلف هو مخزنه ومكتبه. ولقد جربت الخزان، فوجدت به ماء ولكن لعله من الأفضل أن تغليه قبل أن تشربي منه. ولا تأكلي الفواكه وما شابه

ذلك هنا وهناك قبل أن تعرف بالضبط ماذا تأكلين. انتظري حتى تتأقلمي»

«سأفعل ذلك»

«هل أنت موقنة من أنك لن تغيري رأيك وتعودي؟»

«انني موقنة»

«حسناً. سيأتي أحدنا ليطل عليك بعد غد وتذكري أن مات لديه جهاز ارسال إذا أردت أن تبعثي الينا برسالة»

وانصرف عائداً الى الزورق، وتطلع الى الخلف عندما وصل اليه ولوّح بيده:

«حظاً سعيداً»

انحنت على سور الشرفة ولوّحت، وانتظرت حتى اختفى اللنش وشهقت بعمق، ثم مضت الى الداخل. كان أمامها الكثير لتفعله، وبعجلة الشباب أرادت أن تفرغ منه في يوم واحد. واحتذبها المكان الذي عمل فيه عمها. المكتب وعليه دفتر الطلبات، وكومة الرسائل التي كانت تجتمعت له في مكتب بريد تاموتوا، العلب وسائر الحاويات التي تضم الأصداف. واغترفت حفنة من الودع الأخضر اللماع وتركتها تنزلق من بين أصابعها، ثم تركت كل شيء مكانه. لا بد أن ترتب مكان اقامتها، وتعد وجبة المساء، وتفرغ حقيبتها.

وفوجئت بغروب الشمس. لم تكن قد اعتادت حلول الظلام سريعاً في المناطق الاستوائية. وأدركت أنها متعبة، ففكرت في أن تغطس في البحر، على نحو حذر، خشية أن تكون هناك مخلوقات مخيفة أو أخطار مهلكة. وكانت المياه دافئة رقيقة، وخضرتها التي تتحول الى زرقة تتموج بألوان ذهبية قرمزية، والشمس تغرص في حافة البحر. وما كاد الوهج النيراني ينطفىء حتى استضاءت ظلمة النجوم في السماء السوداء، وتسلل اليها شعور عجيب بالرفاهية. وما لبثت أن خرجت من الماء على مضض، وقد استخفها المرح في هواء الليل الدافىء، والقطرات الفضية تتساقط من جسمها. ولم تعبأ باستخدام المنشفة، فمن المحقق أن يجف لباس البحر البيكيني الذي كانت ترتديه خلال المسافة التي تقطعها

عائدة من الشاطىء الى بيتها الجديد وقفزت مثل حورية من البحر وهي تترنم لنفسها ببعض الأغاني ومضي الى المنزل، الذي كان الوهج المنبعث منه يتلألأ بين الأشجار هذا بيتها لمدة عام إذا سارت الأمور على ما يرام. كل هذا ملكها. جنة من جنان الأرض. ستجذب الأريكة الى الشرفة وتنام الليلة تحت النجوم، وستدير الغراموفون القديم ببعض اسطوانات العم نول القديمة...»

ودفعت الباب لتجد في مواجهتها شبحاً. فشهقت وقفزت الى الخلف بصيحة ذعر، واصطدم جسمها بسور الشرفة. وهي ترى المعالم الخارجية لرجل في خلفية الضوء. فمدت يديها وقلبها يكاد ينصعق وحاولت أن تتجنب اليدين اللتين أمسكتا بكتفيها

«لا بأس. كل شيء على ما يرام. انني آسف. لم أقصد أن أفزعك. انني ... يا للهاء»

تخلصت من يديه بمراوغتها المحمومة وهو يحاول تهدئتها. وقفز القريب الى الوراء، كأنما لدغه شيء، ومن خلال الضوء المنبعث من الباب لمحت وجهه الشاحب. فانتصبت وهي تهتز وشهقت بعمق.

«كيف تجرؤ على الحضور الى هنا و...»

وتهدج صوتها وبلعت ريقها بصعوبة. لم تكن قد استطاعت أن تتغلب على فزعها بعد. أما هو فكان يحدق فيها، وقد تملكت ملامح الغضب وجهه. وكانت لا تزال تحس بنظرته تحرق جسمها، فانحنت لتناول المنشفة التي سقطت منها ولكنه أسرع والتقطها ودفع بها اليها.

«انني آسف لأن أصدمك هكذا، ولكنني .. يا إلهي! انني سأجعل يتجوزن يولي الأدبار من أجل هذا!»

جذبت المنشفة حولها وتجاوزته. ومشاعر النشوة الدافئة التي تملكتها منذ دقائق قد ولّت. وهي الآن تشعر بالبرد وترتعش، وتريد أن ترتدي ملابسها. ولكن زائرها الذي لم يكن موضع ترحيب لم يتحرك.

«أنا مات دينهام. لقد قابلت لوني بعد ظهر اليوم فقال لي انك هنا، وقد

أوهمني كذلك أنك مجرد طفلة تحتاج للاطمئنان عليك. أولاً لأنني لم أستطع أن أصدق أن في وسع لوني أن يدع طفلة صغيرة طليقة على سجيتها هنا وثانياً لأنني خفت أن يكون قد فعل ذلك حقاً».

قالت بغضب، وهي تجتر محاولة اشعال الموقد:

«تعني انك كنت فضولياً أليس كذلك؟».

فجاء اليها، وتحاها بلطف قائلاً:

«أليست هذه هي الطبيعة البشرية؟ لن تستطيعي أن توقديه على هذا النحو. عندما وجدت هذا المكان خالياً ولكن به علائم على وجودك تساءلت ماذا يمكن أن يكون قد وقع لك. وهنا حدث اصطدامك بي».

«لقد ذهبت للاستحمام».

قالت ذلك وهي ترقب الموقد يتوقع، وبذلت مجهوداً كي تسيطر على مشاعر المرارة التي تملكتها. بالطبع هذا الشيء، يأبى أن يشتعل من أجلها من أول مرة! ما لبثت أن نظرت الى مات، ثم الى الباب قائلة:

«حسناً، كما ترى، انني على ما يرام تماماً، وشكراً على إشعال الموقد».

تطلع للحظة بدون أن تختلج نظرته وهي تحدق فيه أيضاً بتحد ثم قال ببطء:

«أنت تعلمين أنه لا يمكنك البقاء هنا».

«ولكنني سأبقى».

«إن من الجنون مجرد التفكير في ذلك».

«لا أفكر في ذلك. انني أفعله».

«هل أخبرك بن بعرضي؟».

«نعم».

زمّ مات شفتيه لغلظة إجاباتها وبدا كأنه سيرد عليها أيضاً بنفس الغلظة لم عدل، وانبسط وجهه قليلاً ربما لأنه أدرك أن هذا ليس الوقت الملائم لمزيد من الجدل. قال:

«ستحتاجين الى ارتداء ملابسك وما الى ذلك. وسنتحدث في الموضوع غداً».

«ليس هناك ما يمكن أن نتحدث عنه».

«أتعنين أنك جادة؟ أنت لم تفكري في الموضوع؟».

«كلا».

بدا من التعبيرات التي ارتسمت على ملامح مات أنه يجاهد ليمنع نفسه من هزها بعنف. قال وهو يلتقط نفساً عميقاً:

«اسمعي. إن من الجنون حتى التفكير في الاقامة هنا ومواصلة تجارة تول في الأصداف. كيف يمكن لفتاة أن تتحمل العيش في جزيرة كهذه.. حيث لا يوجد شيء... لا...».

«إنها جزيرة جميلة، ولقد وقعت في حبها بالفعل».

«وقعت في حبها؟».

لم تتأثر بلهجة الازدراء في صوته. ومضت الى غرفة النوم وارتدت دثارها وقالت:

«سأتعلم تحمل العيش هنا يا سيد دينهام، ولن أبالي بما تقوله أنت أو غيرك».

ارتفع حاجباه عندما عاودت الظهور قائلاً:

«لا؟ هناك نقطة صغيرة يبدو أنك لا تدركينها. كيف يمكنك أن تبقي في جزيرة لا توجد بها امرأة أخرى؟».

حدقت فيه كريستي وقتاً طويلاً. ثم انصرفت عنه الى الموقد ووضعت يدها على مقبض الغلاية قائلة:

«لماذا تتوق على هذا النحو الى التخلص مني؟».

قال بعد تردد ملحوظ:

«ليس هذا صحيحاً تماماً».

«انه صحيح. ويبدو أنك تعتقد أنني سأسبب لك بعض الصعاب في عملك. حسناً، أنا لن أفعل ذلك. وليس لديّ أدنى نية في أن أسبب لك المتاعب أو أتدخل

في حياتك».

«لم أقل أنك تفعلين هذا».

«كلا، ولكن كلامك ينطوي على ذلك».

فتحرك وارتكن الى الجدار حيث لا تستطيع أن تتجنب مواجهته، وقال:

«لا بأس، لقد تكلم لوني اذاً. حسناً، إنه صحيح الى حد ما. ان نشاطك قد يؤثر على عملي، ولكن لا لسبب إلا لأنك هاوية لا تعرف ما تفعل، ومن الأرجح أن تقع في المصاعب بسبب الجهل. حسناً يمكن أن تكوني عبأ عليّ، ولكن هذا لا يقلقني في الوقت الحاضر».

«ماذا يقلقك اذاً؟»

«لأنه ليس لديك فكرة عما تواجهينه هنا».

«لقد تعرضت لهذا الكلام اليوم، ولن أقبل التعرض له مرة أخرى».

فتابع كأنها لم تتحدث:

«الجزيرة جميلة بالطبع، وهي بهجة جميلة لشخص جاء لتوه من انكلترا. والأمر يبدو كافياً في الوقت الحاضر ولكنه لن يستمر على ذلك طويلاً. سيكون الوضع هنا بالغ الوحشة عندما تذهب الدهشة الأولى».

قالت بعناد:

«سأجد عملاً كثيراً أؤديه».

«لا يمكنك أن تعملي أو تلعبي طول الوقت، فعندما يأتي موسم الأمطار سيدفعك الى الجنون. لن تستطيعي الذهاب الى اي مكان لتتجنبيها. ولن تستطيعي الخروج في المطر إلا اذا كنت تحبين أن تلتصق بك ملابسك، وأن تنزلق بك كل خطوة الى الوحل. وتتحوّل البحيرة الى ساحة رمادية عاصفة، ويصبح كل شيء خليطاً تقطر منه المياه، وفي فراشك سينتشر العفن، ويهترئ حذاؤك ويتقطع شذراً إذا كان جلدياً. واذا حاولت تجفيف نفسك بالمدفأة، فستتبخرين! هذا اذا كنت بعيدة النظر وأودعت الأخشاب الجافة في مكان تظل فيه جافة».

ولم تلحظ أنه تناول من بعدها إناء الشاي القديم المطلي بالمينا، وملأه من الغلاية. وبدا لها كأنما طالت قامته حتى طغت على الغرفة، وأن قواها بدأت تضمحل، وكأنها تتسرب اليه. فجلست الى المائدة، وأسندت ذقنها بين راحتيها تحاول أن تستعيد روحها القديمة.

«أنت لا تزال تحاول إبعادي».

هز رأسه قائلاً، بينما رقّت ملامحه لأول مرة وبدا على شفتيه شبح ابتسامة:

«لا. أحاول فقط أن أفتح عينيك. أنك كريستي، أليس كذلك؟»

أومأت برأسها قائلة:

«ولكنني أذكرك أنه مرّت ست سنوات منذ أن ألتقط العم نول آخر صورة لي فأنا لست كما كنت في الثانية عشرة».

قال بصوت جاف بينما بدا في عينيه شيء جعل الدفء يتسرب الى وجنتيها:

«انني أدرك ذلك. كما أنك لا زلت فتاة صغيرة في بعض النواحي. وهذا هو السبب في اعتقادي أنه يجب أن تنسي هذا الخاطر المجنون. خاطر البقاء هنا. يمكنك أن تبقي بضع أسابيع قلائل، حتى تلوحك أشعة الشمس. وبعد ذلك يجب أن تعودي الى موطنك، وتبدأي حياتك بين أهلك وعشيرتك، قبل أن تحل بك خيبة الأمل».

«لا أريد ذلك. ألا تفهم؟ هنا مكان مختلف. هذه هي الحياة».

«ألم يعد هناك تحديات في موطنك؟»

رأت لمحة من السرور الساخر في عينيه، فزمت شفتيها:

«أنت تتحدث عن خيبة الأمل. ماذا يجعلك تعتقد أنها مرتبطة بكاليندا؟»

«لا أعتقد ذلك. وأنت أصغر من أن تهربي من خيبة الأمل».

«وما الذي يجعلك متيقناً من ذلك؟»

«النظرة الرقيقة العذراء في عينيك. انك لا تزالين تعيشين في برجك العاجي، وتعتقدين أنه سيظل ثابتاً فوق جزيرة صحراوية. أليس كذلك؟»

فهتفت قائلة:

«اسمع! لقد ادخرت خمسمائة جنيه خلال العامين الماضيين، وكنت على وشك أن...»

ثم تمالكت نفسها وكبحت، في الوقت المناسب، اعترافها الغريزي بأ المجهول كانت ستذكر له أنها صدمت في حبها ثم واصلت حديثها قائلة:

«كنت أنوي القيام بإجازة خاصة جداً هذا العام. ولذلك فمهما قلت لن تتمكن من إبعادي. وسأبقى هنا».

«فهمت».

تطلعت اليه قائلة:

«ثم انني أعرف أمر المال الذي اقترضه منك العم نول. وأؤكد لك أنني سأسدد كل بنس منه».

عاد التجهم الى عينيه، وخطا نحو الباب:

«يمكنك أن تنسي ذلك».

«مائتا جنيه!»

«لقد سمعت ما قلته».

كان قد وصل الى الباب وفتحه وبدا على وشك الخروج بدون كلمة أخرى، فنهضت بجذعها قليلاً وقالت:

«ألن تبقى لتناول الشاي؟»

«كلا، شكراً. طابت ليلتك يا كريستي».

وسمعت خطو قدميه على الحصى في الخارج وهي تحدق في فراغ الباب. هذا اذاً هو مات دينهام!

تغضّن جبينها، وصبّت لنفسها فنجاناً وأخذته الى الأريكة. وتكوّرت في جلستها الأثيرة وأخذت تسترجع صدمة المساء وما آلت اليه. ووضحت صورته في ذهنها وبدت حيّة في الوقت الذي خبا فيه وهج الموقد. لم يكن مات دينهام على الصورة التي توقعتها بل كان أبعد بكثير. فقد كانت تتوقعه رجلاً أكبر في

السن، أكثر خشونة، قد عركته الحياة، منتمياً أكثر الى عالم لوتي يتصورن على سجيته وهو يعقد صفقة صعبة، مثلما هو على سجيته وهو يتشاجر في مقهى. ولكن هذا ليس معناه أن مات دينهام لم يظهر في صلابة الآخرين. لقد بدت كتفاه وصدره تحت قميصه القطني المفتوح في قوة خشب الساج، ولم تَرَ خطوط ذقنه بأية نقطة ضعف في أي مكان. لا، انها لم تتوقع رجلاً على هذه الدرجة من الجاذبية، ذا بشرة نظيفة نقية لتمتعه بقدر كبير من الوقت في الهواء الطلق، وعينين رماديتين مباشرتين تستشفان أي تظاهر، وفم ثابت الزوايا والخطوط يجعلك تراقبه وهو يتحدث.

ونهضت لتأتي بعلبة البسكويت. ربما يكون قوياً أكثر مما تصوّرت ولكن هناك الآن ما يشغلها أكثر من هذا الرجل الذي أظهر بوضوح أنه لا يريدها في كاليفا بأي ثمن. حتى لو كان الثمن مائتي جنيه! فلماذا رفض المبلغ؟

ولكنها لم تستطع أن تخلّص ذهنها بسهولة من مات دينهام. وبدأت تستعد لقضاء أولى لياليها في الجزيرة. ازداد إحساسها بالسكون من حولها. لم تكن هناك نسمة في تلك الليلة تحرّك أوراق الشجر، أو تتدافع خلال قش السقف. لا شيء يعكّر السكون بعد أن عادت الطيور الى أعشاشها - فيما عدا إدراكها الغريب المزعج بخلو الجزيرة تماماً إلا منها ومن مات دينهام.

ولم يخطر لها والنوم يسترق الخطى بصعوبة الى جفنيها أنه خلال الساعات الأربع والعشرين السابقة لم يطرأ أي ذكر لستيفن على ذهنها كأنما لم يسبق له وجود.

كان كل شيء لا يزال هناك عندما استيقظت مبكرة في الصباح التالي. سحر البحر اللؤلؤي الذي كان يتحوّل الى الزرقة الصافية والشمس ترتفع، ورقعة الشاطئ الأبيض تمتد بلا آثار، تنتظر انطباعة قدميها الصغيرة الضحلة وهي تهرع لترتطم منتشية بمياه البحيرة. قليل من الأيام على هذا النحو وتصبح في سمرة أهل الجزر، بصورة تجعلها موضع حسد الأصدقاء في موطنها، ممن جعلهم

الشتاء في لون شاحب.

كان إغراء الخضوع للكسل الأبدي قوياً ولكنها قاومته برغم علمها أن أمامها الكثير لتفعله. وكانت ثمار جوز الهند بنية القشرة متناثرة تحت أشجار النخيل، وكأنها غنيمة الطبيعة متاحة للأخذ وهي في طريق عودتها الى بيتها الصغير جمعت ثمرتين وهي تفضي. ولكن القشرة الخارجية تأبت عليها وهي تحاول كسرها فكفت. لا يزال أمامها الكثير لتفعله وها هي غريزة تجهيز البيت الكامنة فيها توحي اليها بأفكار بزالة في كل منعطف من منعطفات البيت الصغير قليل الأثاث. كيف أستطاع عمها أن يبقى بفنجان واحد وبقدح واحد خزفي مكسور الأذن، وطبقين غريبين وأدوات مائدة بالية وإناءين قديمين للطهي؛ تجعلها تحن بالذكرى الى أطقم وأدتها اللامعة من النحاس والصلب الذي لا يصدأ؛ الى جانب عدم وجود ستائر ومفارش، وملاءات لا شك قد شهدت في ذروة أيامها خدمة الجيش، وتوالت عليها في الغسيل بدارجيل غير خبير. لا بد أنه كان يغسل حاجياته في البحيرة؛ وهنا قررت كريستي، وهي تلوي قسمات وجهها متعضة مما تعرضت له الملاءات من ضعك قاس أن تلقي بها في صندوق القمامة، وأن تشرع في اعداد قائمة مشتريات جديدة. ولكن أين هو صندوق القمامة؟

وغشيها المرح وهي تتأمل كيف هبطت من مشاعر السحر الى مثل هذه الدنيويات. شكراً لله أن لهــا بصيرة كافية جعلتها تشتري بعض المواد والخيوط وغيرها من حاجيات البيت قبل أن تغادر تاموتوا. فمن الواضح أنها ستحتاج اليها.

وقاومت الاغراء بأن تدع كل شيء وتذهب لتفقد الجزيرة. وأخرجت ما اعتزمت أن تحيطه الى الشرفة. ستخصص الصباح لاعادة ترتيب البيت، وبعد الظهر لتفقد عمل عمها هذا ليومين أو ثلاثة في أي حال. وعندئذ تكون أكثر قدرة على الاسترخاء وتشرع من ثم في اكتشاف الجزيرة.

وبمضي ساعات قليلة لم تقل متعة منظر البحر السماوي، ولكن بمضي الوقت اعترفت لنفسها بأنها في عقلها الباطن تنتظر زائراً. وكان من السخف أن تحدثها نفسها بأن الشعور الذي يتملكها وهي تسير على الشاطىء في الساعات الأولى من المساء انما هو خيبة أمل. كانت هناك نسمة رطبة لذيذة تحرك خضرة البحيرة وتهمس بين أشجار النخيل، بينما كانت الطيور تحوم وتدور وتصيح في سعيها بحثاً عن طعامها.

هنا اذاً بيت مات، الكوخ الأخضر الذي يقع الى جوار البناء الطويل المنخفض، الجاهز الصنع في حمى هضبة صغيرة خضراء تعلو من جانب الشاطىء. كان هناك مكان خشن للرسو ولكن لا أثر لقارب. فمشت تطوف حول المبنى واثقة من أن لديها سبباً مشروعاً للتواجد هنا، في حالة ظهوره فجأة ومطالبته بمبرر لوجودها.

ولكنه لم يظهر وتطلعت يمناً ويساراً، ثم وقفت على أطراف أصابعها يخالجها الشعور بالذنب بسبب فضولها، واسترقت النظر من خلال نافذة البناء الطويل. كانت هناك مقاعد طويلة مصطفة عند الجدران وعليها أحواض وخرائط ومعدات أخرى تبدو علمية. لا بد أن هذا كله يخص البحوث التي يقوم بها. هكذا فكرت وهي تستدير في طريقها الى البيت. كم بقي له في كاليندا؟ لا بد أنه شعر بالوحشة بعد أن مات عمها. ومع ذلك فقد قاوم فكرة قدومها أو قدوم أحد آخر الى الجزيرة. فهل هو مكتف بذاته حقاً كما يبدو؟

كانت قد أوشكت على بلوغ بيتها عندما شاهدت نقطة في البحر، فوقفت في دفء البقعة الضحلة وهي تشاهد القارب يقترب، حتى دخل الممر المائي بين سلسلة الصخور. وعرفته من رأسه وكتفيه وهو يتجه عبر البحيرة الى مكان الرسو. ولكن اذا كان قد لاحظ هيكلها النحيل على الشاطىء، على مسافة نحو ربع ميل، فانه لم يظهر ذلك. وهكذا انصرفت كريستي وهي تشعر بكبريائها قد جرحت. أهكذا ستكون الأمور؟

مشت الى الداخل وكتفاها مشدودتان بتحدٍ ملؤه الكبرياء. وأدارت الغراموفون القديم بأعلى صوته، وتناست ستارها نصف المخيطة، وتناولت بعض ما لديها من القماش الذي أحضرته، وبدأت تصنع منه ثوباً لها على غرار ما يرتديه الوطنيون في جزر المنطقة، ويكتنف الجزء الأدنى من الجسم، ويسمونه «سارونغ».

شعرت بجماله وبرطوبته وهي ترتديه في صباح اليوم التالي، وأحست بأنه الثوب المناسب لتبدأ به عملها الرسمي. ولما كانت تفتقر الى مرآة بطول الجسم، فلم تستطع سوى أن تخمن بدرجة نجاحه كزي، وأن تكتفي بدبوسين كبيرين لتثبيته على أمل أن يوفرا أماناً كافياً. ونظرت الى نصفها الأعلى، ثم ترددت، وأخيراً استعادت تحديها وذهبت الى المكتب حيث جمعت ما أرادت جمعه، ثم شرعت تخطو الى المنزل الآخر وهي تشعر بحرارة الشمس على كتفيها العاريتين، وبعقدة الثوب الصغيرة محكمة تحت ثدييها.

كان القارب راسياً في مكانه، وباب معمل الأحياء المائية مفتوحاً. فتقدمت منه بخطوات ثابتة وطرقته قبل أن تنظر الى الداخل. كان هناك ذلك الشيء الأخضر الخافت الذي هو سمة متاحف الأحياء المائية. وهناك كومة من الأوراق فوق مائدة في ركن قصي تدل على أن أحداً كان يكتب ثم وضع القلم وهو في منتصف عمله. وكان هناك باب آخر مغلق، يفضي كما ظنت الى غرفة أخرى. ولكن لا أثر لحياة. واذ هي تستدير لاحظت علائم حياة في أحد الأحواض التي بدت باستثناء ذلك جامدة. كان حيواناً هلامياً صغيراً منفراً في شكله. وبدا كأنه يحدق فيها وهي تقف تحدق بدورها في الحوض. وأغراها القلم القريب فتناولته، مستسلمة لغريزة طفولية تملكتها لمداعبة الحيوان.

وكانت هناك صيحة تحوم على شفتيها، مستعدة للانطلاق اذا ما امتد أحد قرون الاستشعار الرفيعة رداً على تحديها. فحركت الماء بجرأة أكبر وهي تدعو الحيوان الى التشبث. ثم أطلقت الصرخة عندما امتدت يدان الى رسغيها وقبضت عليهما بشدة. وقال صوت خافت في أذنها:

«أتريدين أن يمسك بك؟ أتريدين لقاءه فعلاً؟»

هبط الأخطبوط الصغير مستقراً على فراشه الرملي، كأنما رضي عما حدث. ونظرت كريستي الى اليدين السمراوين اللتين جاءتا من وراء كتفيها بدون أن تظهرا علائم تخفف، وقالت باستياء، من غير أن تجاهد لتخليص نفسها خوفاً من أن ينزلق ثوبها:

«لم أكن أنوي أن أمس حيوانك الوحشي الأليف. هاك! هاك قلمك! انني أعيده اليك. أتزحف دائماً على الزوار هكذا وتهاجمهم؟»

«اذا لم أكن قد دعوتهم».

وتحركت في اضطراب فأطلق يديها، وهو ينظر اليها بسرور تختلط بالجهامة وهي تدعك رسغيها قائلة:

«لقد أردت أن أتحدث اليك عن عدة أشياء، وهي معي هنا، في الشرفة».

قال ذلك بسخرية، وهو يلاحظ ارتباكها وهي تبحث عبوثاً عن حقيبتها، ثم تلتقطها. وقالت متقطعة الأنفاس، وهي تحاول استعادة هيبتها:

«انه محض عمل. شؤون عمي. لقد كانت هناك عدة رسائل و...»

«تعالي الى البيت الآخر».

وتحرك صوب المستطيل الذي أضاءته الشمس. وتطلعت اليه بحذر وهو يمر بجوارها، ولاحظت الدعابة الجهمة التي لا تزال تبدو في عينيه وفي نظرته الى زيها الجديد الذي كان من صنعها، وقال في جفاف:

«نعم، أرى أنك تؤمنين بالامتزاج مع خصائص ما يحيط بك. ولكنك نسيت لمسة حيوية أخيرة».

فالتفتت اليه بشدة:

«وما هذه؟»

«هذه...»

وانحرف جانباً الى الحديقة التي كانت تحف بالكوخ، ومدّ يده والتقط ترنقلة جميلة وثبتها في شعرها. فرفعت يدها الى أذنها قائلة:

«سأعرف أين آتي من أجل أكاليل الزهور».

ولكنه كان قد تقدمها ليزيح غصناً فلم تعرف ان كان يضحك منها. وعندما دخلت غرفة الجلوس كانت تعبيرات وجهه متماسكة. فأخذت تتطلع حولها بفضول حذر أنساها ما حدث. كان مسكن مات ديتهام أكثر تقشفاً من مسكن عمتها ولكنه أكثر نظافة. لم تكن على الجدران البيضاء أية زينة، وكانت الأرض عارية. وهناك حاجز من الشبك له باب مزدوج في الوسط يخفي غرفة نوم، بينما كشف لوس مفتوح في أحد الجوانب عن مطبخ صغير. أما الأثاث فكان مقصوراً على الضروريات. ويوجد اناء أبيض على مائدة منخفضة بجوار النافذة، يحمل مجموعة زهور في أوراق خضراء. ولكن الزهور كادت تموت، وقد تساقطت عنها أوراقها وتحللت سيقانها. ولم تملك إلا أن تتساءل بينها وبين نفسها عن اليد التي جمعت هذه الزهور. وفيما كانت تلتفت التقت عيناها بعينيه، وأدركت أنه لاحظ تساؤلها الصامت ولكنه لم يكن ينوي أن يشجعه. ووقف ينتظر في أدب بينما جلست في مقعد أشار عليها به. وقالت بسرعة:

«لقد جئت اسألك اذا كنت ستقدم اليّ بعض النصائح عن شؤون عمي».

«ونصيحتي المبدئية. ليست مقبولة؟»

«لا».

«حسناً. ماذا تريدين أن تعرفي؟»

«كيف كان يعمل عمي؟»

«عندما كان يشعر برغبة في العمل».

حاولت ألا تظهر أي أثر للاستفزاز. قالت:

«كيف كان يعثر على هذه الأصداف، ويتعرف عليها؟ لقد راقبت الشاطىء عن كثب بعد كل مد، فلم أر كثيراً من الأنواع التي كان يحتفظ بها في مخزنه».

«لن تري شيئاً منها على الأرجح، ما لم يكن هناك بحر عاصف».

كان من الواضح أنه لا يريد أن يبوح بسهولة عن أية معلومات، فحاولت مرة أخرى:

«هل كان يجمعها عند سلسلة الصخور؟»

«أحياناً».

«هكذا ظننت».

«لا أنصحك بأن تحاولي ذلك».

«ولم لا؟»

فهز كتفيه قائلاً:

«ستحتاجين الى أحذية متينة، ومعرفة بسلسلة الصخور، وكذلك المد، وأكثر مما لديك الآن».

فأومأت بدون ابتسام، وقد قررت أن تدع ذلك يمر في الوقت الراهن. وتساءلت:

«هل كان عمي يوظف أحداً؟»

تردد مات، ثم قال أخيراً على مضض:

«غلامان من تاموتوا».

«هكذا ظننت. وقد كانوا يغوصون بحثاً عن هذه الأصداف. أليس كذلك؟

لقد عثرت على أنابيب للتنفس تحت الماء، وعلى زعانف وأشياء أخرى - وواحدة من أسطوانات الغطس تلك التي يرتديها الضفادع البشرية».

زم مات شفتيه قائلاً:

«نعم، لقد أغرم عمك بأدوات الغطس، واشترى زنة مائية في نفس الوقت الذي حصل فيه على الزورق الجديد ولكن...»

قاطعته قائلة:

«أعرف ذلك. انك ستحذرني بألا أحاول هذا أيضاً. سأمتثل لذلك. والآن أين هو هذا القارب؟»

أشار بإبهامه قائلاً:

«في مأمن - في الخلف هنا - لقد تركته لدواعي الأمن بعد أن مات عمك».

«بالطبع. ان لك مساهمة ما في هذا القارب. حسناً. فلندعه حيث هو كنوع من الضمان حتى أسوّي الأمور».

«لقد كنت أظن أنني سوّيت هذا الأمر بالفعل».

«ليس بالطريقة التي أريدها. انني موقنة من أنني لا أريد أن أكون تحت أي التزام لك».

تطلّع اليها بحدة. وبعد فترة تأمل قال وهو يومىء برأسه:

«حسناً. القارب يمكن أن يبقى حيث هو في الوقت الحاضر. ولكن ليس ذلك لأسبابك الخاصة».

رفعت حاجبيها بينما استطرد قائلاً:

«انني موقن من أن هذا لا يحتاج الى تخمين كبير».

«كلا. انه لا يحتاج. من الواضح أنك تعتبرني طفلة عديمة الفائدة لا تعرف شيئاً عن القوارب، أو الغطس تحت الماء، أو أساليب التجارة، والمناطق الاستوائية. ولن يخطر لك أنني أدرك افتقاري الى المعرفة، أو أنني أملك من العقل ما يجعلني لا أرتكب حماقة. ولكن كل أمرىء عليه أن يتعلم».

قالت ذلك بسخرية. فرد قائلاً:

«صحيح ولكن هل يستحق الأمر ذلك؟»

عبست متسائلة:

«يستحق؟ لست أفهم».

«أعني بالنسبة إلى نزوة... آه!... لماذا لا تواجهين الأمر. انها بدعة. ولكنها ستذهب و...»

فقاطعته وهي تمد يدها الى حقيبتها وتخرج حزمة الأوراق:

«لقد تحدثنا عن هذا من قبل. وكنت أقرأ هذه الرسائل التي تجمعت منذ مات

عمي - ثلاثة منها تحتوي على حوالات مالية سداداً لثمن بضاعة أرسلها، وأحداها بخمسمائة دولار وهذا سيتكفل بسداد جزء كبير من دينه لك. وهناك أخرى بـ...»

«وبأي شيء ستعيشين؟»

«سأتدبّر أمري».

قالت ذلك لتنحي تساؤله جانباً، ثم مضت بسرعة:

«هذه هي الرسائل التي تثير الاهتمام. انها حوالات. وإحداها كبيرة. من جامع أصداف أمريكي يعرض خمسة آلاف دولار، وهذا ما يتجاوز ألفي استرليني بسعر النقد الحالي. أليس كذلك؟»

أومأ برأسه، وتحولت تعبيراته الى الصرامة:

«هل لي أن أسأل ماذا يريد؟»

«هذه».

وقدّمت اليه الطلب وأخذت ترقب وجهه وهو يتصفّح المطلوب. ثم طواه ورده اليها وهو يقف:

«وماذا تتوقعين مني أن أفعل؟»

وضايقتها لهجته على نحو لم تستطع معه أن تخفي ضيقها. فانفجرت قائلة:

«حسناً. أنا لا أريد منك أن تمدّني بالأصداف. ولكن توجد مجموعة أصداف هناك. لعل منها ما يريده هذا الرجل. ولسوء الحظ أنا لا أستطيع أن أتعرّف عليها. وليس هناك من أسأله».

«وهكذا تريدين مني أن أحضر وأفرزها لك؟»

زمّت شفتيها. كان يتعمد إلقاء طعم لها. ويستمتع بفرصة رفض طلبها فنهضت فجأة قائلة له:

«حسناً. انك لا تريد. انني آسفة لازعاجك. وأذكر لك أنني أدركت مرماك. ولكنني سأتجاوز ذلك. لا بد أن يكون هناك من هو قادر على اعطائي المعلومات

التي لا تستطيع، أو لا تريد اعطاءها.

وكانت تضع الرسائل في حقيبتها وهي تقول ذلك. وعندما انتصبت ألقت يرقبها ببرود في عينيه. وفتح لها الباب في صمت وأبقاه مفتوحاً وهي تندفع اليه كالعاصفة. ولكنه أوقفها في آخر لحظة.

«تستطيعين أن تسألي اذا شئت. ولكن نصيحتي لك ألاّ تفعلي. بل تكتبي لهؤلاء الزبائن شارحة لهم الظروف، وتخبريهم بأنك لن تستطيعي الوفاء بهذه الطلبات. هل هذا واضح؟»

«تماماً. فيما عدا أنني لا أريد نصيحتك. وأنني آسفة لأنني طلبتها».

ورأس شامخ، عجلت بالانصراف الى حيث أشعة الشمس الذهبية، ولم تلتفت الى الخلف. لقد كان مات دينهام أكثر من قابلته من الرجال غطرسة وبغضاً. ولكنها ستربه رأيها في نصيحته!

٣ ـ الشمعدانات الاسطورية

كان غضبها لا يزال يغلي عندما أقبل الزورق محدثاً فرقعاته عبر البحيرة بعد ظهر ذلك اليوم. وقفز منه لوتي بنبورن وهو يصيح عليها بتحية مداعبة.

ردّت التحية بغير ابتسام، وهي بالغة التلهف على أن تبدأ في رواية ما حدث كله لدرجة أنها لم تلق اهتماماً لحقيقة أن اللنش كان يحمل راكبة أخرى ويتجه بها الى مرسى مات دينهام.

كانت الفتاة طويلة ترتدي ثوباً أبيض ناصعاً، ومالبثت أن نظرت في اتجاه كريستي وأشارت شيئاً الى مات دينهام وهو يبسط يديه ليساعدها على النزول من اللنش. ونظرا معاً في اتجاهها مرة أخرى ثم تحركا على الشاطئ. ولكن كريستي بجسمها الصغير الملتف في قميص مخطط كانت منهمكة في حديثها مع التاجر الضخم على نحو لم تلحظ معه الاهتمام الذي أبدته نحوها ميلاني هايدون.

قالت كريستي وهي منقطعة الأنفاس:

«لم أكن أعلم أبداً بأنه منفر هكذا. يخيفني الى حد الذعر ثم. أود. تعال الى الداخل يا لوتي لنتناول بعض الشراب. أخشى أن يكون المكان لا يزال فوضى. فأمامي أكوام لأرتبها. ولكنك لا تعرف كم أنا مسرورة لرؤيتك. كيف حال بن؟»

«قلق عليك. لقد اكتشف فجأة بعد كل هذه السنين أنه لا يزال يملك ضميرا رقيقاً وهو يعتقد أنه ما كان يجب على عمك أن... يترك أشياء لطفلة مثلك تتولاها. ربما لو كان قد أشرك أخاك فيها».

«لم يكن ذلك ليثير أدنى اهتمام من جانب تيم. انني آسفة لأنه ليست هناك أكواب. لقد كان هناك قدح واحد ولكنه كان مكسوراً فتخلصت منه. ولكنني وجدت زجاجة شراب مملوءة الى المنتصف بين متاع عمي».

قال لوني وهو يضحك:

«انني لا أقول لا أبداً».

ثم بدأ ينقب في حقيبة كبيرة قديمة من الخيش جاء بها معه وقال:

«ظننت أن هذه قد تفيدك».

وكانت هذه عبارة عن زجاجتي مياه معدنية، وبعض الفطائر والفاكهة الطازجة، وزجاجة من الشراب، ومجموعة من الكتب ذات العناوين الرهيبة. وقال لوني:

«لم يكن بن متأكداً من أن هذا هو لون القراءات الذي تفضلينه قبل النوم».

«أشكرك. انك رقيق للغاية. قل لبن أنني أحب قراءة القصص المفزعة قبل النوم».

وحين قالت ذلك أحست بغصة في حلقها وهي تذكر كم يمكن أن تكذب المظاهر. كانت تعتقد، عندما رأت لوني وبن أول مرة أنهما مجرد بائعين خشنين من باعة أرصفة الموانيء. ولكن كم كانت مخطئة. ربما يكونان أكثر خشونة بالنسبة لمات ديهام، ولكنهما مخلصان، وعلى سجيتهما.

جلسا في الشرفة ومعهما المشروبات وشرعت كريستي تروي مالاقته في يوميها الأولين بالجزيرة، وما تواجهه من مشكلات. وعندما انتهت من الحديث تطلعت في أمل الى لوني وهو يحك ذقنه فقال:

«أود أن أساعدك، ولكنني لا أريد أن أقدم وعوداً قد لا أحافظ عليها. دعي الأمر لي لبعض الوقت، وخلال ذلك، سأتفقد مخزونك من الأصداف».

وشعرت في أعماقها بخيبة أمل لم تفصح عنها عندما عجز لوني عن التعرف على أكثر من ستة من الأصداف في المخزن.

«أيقنت الآن انني كنت أرى هذه الأصداف تضرب الشاطيء، ولا أراها في الوقت نفسه. لا بد أن هناك مئات الأنواع المختلفة منها. ولكن بن وأنا لم نولها أي اهتمام. سأقول لك شيئاً. لا بد من أن تحصل على كتاب عن القواقع والأصداف».

«فعلت ذلك قبل أن أغادر موطني، ولكن الكتاب لم يتضمن شيئاً من هذه، بل مجرد قسم صغير عن الأصداف الاسترالية المعروفة».

وفكرت، ولم تكن هذه أول مرة، لو كان عمها قد أنشأ نظاماً لحفظ الأصداف وتصنيفها. كان من الواضح أنه حصل على خبرة كبيرة بتعامله مع هذه الأصداف ولكنه احتفظ بها في رأسه، شأن كثير من الاهتمامات الفردية.

نظر لوني الى وجهها القلق وربّت على كتفها قائلاً:

«ابتهجي... متى ستأتين الينا؟»

«يوم الاثنين القادم على ما أعتقد. أريد أن أذهب الى البنك وأن أتسوق».

«سنجعله يوماً ممتعاً. هل تسمحين لي ولبن أن نصطحبك للعشاء؟ اننا نتأنق أحياناً كما تعلمين».

«لم أكن أفكر في ذلك. نعم، أحب ذلك. وقد أبقى ليلة. انني أريد تصفيف شعري ولا مانع عندي من حمام مناسب».

أومأ لوني برأسه، وسارت معه على الشاطيء، لانتظار اللنش. وهنا فقط تذكرت زيارة مات ديهام. فتساءلت بطريقة عرضية:

«من هي؟»

قال لوني وقد بدأت ابتسامته تتسع:

«ميلاني هايدون من الادارة. غزوة أخرى من غزوات مات!»

تدلت أطراف فمها وتساءلت:

«أخرى! اذاً فلابد أن الغزوات فقيرة هناك»

قال لوني وهو يداعبها بلكمة في الهواء تحت ذقنها:

«لست الزهرة الجميلة الوحيدة هنا. ان دوك تشالرز له ابنة أخت صغيرة رشيقة جاءت لتتولى شؤون منزله. وهناك ممرضة فرنسية جديدة في العيادة. واو!»

مثّل لوني حركة بعينيه ولكن كريستي لم تبتسم، ولم تدر لماذا تملكها شعور بالسخط عندما بدأ اللنش يرحل بغير مرافقة مات، أو غزوته الجميلة.

قال لوني وهو يجلس في اللنش ويخرج سيكاراً صغيراً:

«انه سيعيدها الليلة في ظلال القمر والآن كوني طيبة يا كريستي الصغيرة. سأراك يوم الاثنين».

ماذا يعتقد أنه في وسعها أن تكون في كاليتا، إلا طيبة؟ راودها هذا التساؤل بمرارة وهي تلوّح وتشهد اللنش يختفي بينما كانت شمس المحيط الهادىء ترسم أمجادها على هذا المشهد الجميل. كان من العسير أن يقرر المرء أيها أجمل، الفجر، أو غروب الشمس، أو نور القمر. نور القمر أولته كريستي ظهرها وتساءلت عما اذا كان المطر قد فات أوان هطوله.

إلا أن الصباح التالي جاء معه بمفاجأة سارة. فاخبرها غلامان رشيقان أن التاجر لوني قد أرسلهما، وأنهما سيعملان لها سيغطسان بحثاً عن الأصداف على أن تدفع لكل منهما مئة توس. كان لوني قد أوفى بأكثر من وعده الحقير.

سخر الغلامان من قصبات التنفس التي عرضتها عليهما واستخرجا من مجموعة المعدات في حظيرة المخزن ما يريدان. كان معهما معدات خشبية للغطس، وحول وسطيهما عدة أكياس على شكل الجراب، وفي حزاميهما مدى كريهة الشكل. وماليثا أن اتجها الى سلسلة الصخور في حماس واضح.

ارتفعت معنويات كريستي، ستتصلح الأمور في أية حال. لقد كان غباء منها أن تدع نفسها تستسلم للكآبة ليلة أمس. ان الأمور بدت أكثر صعوبة مما توقعت، سيستغرق الأمر وقتاً بالطبع لتسوية المضايقات الأولية. وعليها أن

تتعلم وهي تعمل، ولكن المهم هو أن تبقى بعيدة عن مات ديتهام.

قررت أن تحزم ما تستطيع حزمه من طلبيات، وأن تكتب لترد على استفسارات جامعي الأصداف وتشرح الظروف التي مات فيها عمها وتؤكد أنها ستسعى جاهدة لتفي بطلباتهم في أقرب وقت مستطاع.

وكانت قد عثرت على علب الكارتون التي كان عمها يحفظ فيها بالأصداف وعلى مفكرة قديمة يرجع عهدها الى عدة سنوات كان عمها يخط فيها بيده وعلى نحو متفرق محاولاته لتصنيف أسعار السوق. كذلك كان هناك كتالوج أصدره أحد مشاهير التجار الأمريكيين وهذا درسته كريستي بعناية.. كانت الأسماء اللاتينية بمثابة كتاب مغلق بالنسبة إليها ولكنها ستتعلم بمرور الوقت، وهذا أفضل من لا شيء. وقد ارتفعت الأسعار منذ ذلك الحين بالطبع ارتفاعاً كبيراً، ولكنها لو أضافت عشرين في المائة الى الأنواع النادرة، وعشرة في المائة الى الأنواع المتوفرة. ماذا يمكن أن يحضره الغلامان اليوم؟ هل يسعفهما الحظ بأصداف نادرة مثل أصداف التراينون أو نجمة البحر، ومثل الأصداف الذهبية أو المحارة الثمينة التي يحلم بها كل جامعي الأصداف، وهي مجد البحار؟

عاد الغلامان في وقت أقرب مما توقعت، ومعهما دلو نصفه ممتلىء، وأفرغا فيه ما في أجربتهما، وقالا لها ان هذا الدلو الآخر يجب ألا تمسه حتى يعودا، ثم انصرفا مسرعين الى الشاطىء.

تطلعت بفضول الى المجموعة وأدركت أنها ستثق بكلمة الغلامين. هذه أصداف لا تبدو كأصداف الشاطىء الانكليزي. انها مغطاة بالفطريات والأعشاب، ومعظمها، هكذا قدرت، لا يزال يحتفظ بساكنيه. وفيما كانت تهم بالعودة الى الداخل لاحظت أن الغلامين قد جمعا ثمرتين من ثمار جوز الهند. وراقبتهما باهتمام وهما يبريان أحد الفروع حتى تسنن ثم يدسانه كالاسفين في شق بين الصخور، ويضربان الثمرة بسن الفرع. فانشقت القشرة وتركت اللب

الداخل تماماً بينما شرع الغلامان في شرب عصير الجوز وهما عائدان الى سلسلة الصخور.

هكذا اذاً تكسر الثمرة! بعد أن سنفت كريستي هذه المعلومة في ذهنها استأنفت عملها في المكتب. وعندما قررت أن تتوقف لتستريح قليلاً كانت الظلال قد بدأت تمتد فاعتزمت أن ترى ما اذا كان الغلامان قد عادا. ولدهشتها لم تجد لهما أثراً وكان الطوف قد ولى. فعادت الى الحظيرة وهي عابسة. كان كل شيء كما تركته، فمشت على الشاطىء وهي تدرك أنه اذا كان الطوف قد ذهب فلابد أن يكونا عليه. ربما أديا ما اعتبراه كافياً لليوم، أو ربما أبحرا الى الجانب البعيد من الجزيرة.

نقلت الدلوين بحذر الى مكان ظليل ثم أكملت تحرياتها بماء البحر لابد أن توضح للغلامين أن ما تريده هو الأصداف فقط بغير شاغليها من الحيوانات الرخوة. الأرجح أن يعودا في الصباح في أي حال، ولكنهما لم يعودا!

كان يوماً مثالياً آخر الريح تدفع السحب، التي كانت كالقطن المندوف، عبر السماء، وتخفف وقع الشمس. وتملك كريستي نفاد الصبر مرة أخرى فجاءت بالمنظار المكبر القديم الذي وجدته في متاع عمها وتفحصت به البحر بحثاً عن أثر للطوف، ونقل اليها المنظار صورة تاموتوا بشكلها وجبالها مفصلة، ولكنها لم تبد اهتماماً في تلك اللحظة. لماذا لم يعد الغلامان؟ حتى اذا كانا قد غيرا رأيهما أو وجدا عملاً مربحاً أكثر فلماذا لم يعودا للحصول على أجرهما؟ ما لبثت أن التفتت لترى مات دينهام يسير في اتجاهها. فانتظرت بدون أن تبتسم حتى توقف.

قال دون مقدمات:

«اذا كنت تبحثين عن هذين الغلامين فأنت سيئة الحظ لأنهما لن يعودا».

حدقت فيه قائلة:

«ماذا! ماذا تعني بأنهما لن يعودا؟».

لم يبد على ملامحه اللينة أي اعتذار. قال:

«كنت في طريقي اليك لأخبرك. لقد استبحت لنفسي أن أطردهما، كما دفعت أجرهما. ولهذا لا تنخدعي اذا حاولا التغرير بك وطلبا أجرهما».

كادت كريستي أن تتلعثم وهي غير مصدقة. والغضب يجتاح جوانبها:

«أنت! أنت صرفتهما ودفعت أجرهما! أنت استبحت لنفسك و... بأي حق كيف تجرؤ أن تفعل مثل هذا. من بين كل الـ...».

فقاطعها قائلاً:

«نعم، توقعت أن تغضبي. أنا نفسي أغضب لو كنت مكانك».

أحكمت قبضتيها قائلة:

«حقاً أي شيء كنت تتوقعه مني غير ذلك؟ أظن أنه لن يكون كثيراً أن أسألك تفسيراً».

أومأ برأسه، ولا يزال الوجوم مرتسماً على فمه. وقال:

«أعرف ذلك. سيستغرق الأمر نحو نصف ساعة. ولو لم تندفعي خارجة في اليوم السابق لكنت أنوي أن أشرح لك على نحو أكمل لماذا قدمت هذه الاعتراضات على وجودك هنا».

هتفت غاضبة:

«كان أمامك وقت وفير لتقدمها، أو على الأصح لتجد أعذاراً جديدة. فلماذا لا تكون صريحاً وتعترف بأنك تمقتني، وأنك لا تريد أحداً غيرك هنا. تريد كالبندا كلها لنفسك حتى...».

«هذا كله غير صحيح. انني لا أمقتك. ولا أريد الجزيرة كلها لنفسي كما تتهمينني».

«اذاً لماذا لا تدعني وشأني؟ هذا الجزء من الجزيرة ملكي. كان ملكاً لعمي وتركه لي. وبوسعي أن أتصرف فيه كما أشاء. ولا أحد يستطيع منعي».

كان مات دينهام هادئاً على نحو ملحوظ أمام تفجرها. وعندما توقفت قال ببرود:

«أخشى أن يكون هذا كله على غير أساس. هل أخبرك عمك كيف حصل على هذين الفدانين في كاليندا؟»

قالت في تحد:

«اشتراهما من رجل أسترالي. وعندي الأوراق».

«لقد اشتراهما من رجل لم يكن قد عرفه إلا في خلال جلسة مقهى في سيدني. وقد اشتراهما بثمن عدة طلبات لأن رفيق الشراب كان مفلساً في ذلك الوقت، وكان عمك يحمل بضعة جنيهات في جيبه».

قالت في عناد:

«حسناً؟ وماذا في هذا؟ ان الأمر لا يزال قانونياً».

قال بنفس النبرات الباردة:

«لست موقناً تماماً من ذلك. هذه الملكية المزعومة يرجع تاريخها الى وقت طويل مضى، منذ ذلك العهد الذي كان أي مغامر يستطيع فيه أن يدعي ملكية أية أرض غير محتلة، أو يقايض عليها الوطنيين بقطع يسيرة من حثالة الحلى التافهة. وفي معظم الحالات لم تكن هناك سوابق قانونية سارية، وكان احتلال الأرض يتم بحق وضع اليد. ولكن الأمور تختلف اليوم اختلافاً يسيراً. ذلك أن كاليندا، مع تاموتوا وسائر جزر المجموعة، قد أصبحت تحت الحماية الاسترالية، في الوقت الذي تدير فيه شؤونها حكومة ذاتية. ومن الممكن اذا جرت تحريات أن تجدي نفسك وليس لديك أي حق قانوني في كاليندا، مثلي تماماً».

بدأت البرودة تسري في كريستي بدون أن يكون لها صلة بالنسمة المنعشة التي كانت تلطم وجهها بشعرها. فدفعت خصلاته الى الخلف وحدقت فيه، تحاول ألا تظهر اضطرابها الذي أثارته فيها كلماته.

«لماذا تقول لي هذا كله؟ هل هناك من يجري تحريات؟ هل هو أنت؟»

«كلا، ليس هناك من يقوم بتحريات. لست أنا بالقطع، وليس هناك على الأرجح من سيأتي ويأمر كلينا بالرحيل عن كاليندا»

«فلماذا اذاً؟»

تطلع في العينين الواسعتين اللتين كان الغضب قد بدأ يفتر فيهما تدريجية لتحل محله حيرة وأثار خوف. ومس ذراعها قائلاً:

«اذهبي وارتدي أقوى أحذيتك، أي تلك التي لها أغلظ نعل. وعندئذ سآخذك الى سلسلة الصخور، وأريك وأشرح لك أسباب تصرفاتي».

كانت لا تزال مضطربة وخائفة، ومع ذلك فعلت كما أشار عليها، وانضمت اليه بعد دقائق قليلة، مرتدية قميصها وبنطلونها الجينز، وصندلاً متيناً ذا نعل من الحبال.

أخذ بذراعها عندما وصلا الى بداية سلسلة الصخور، محذراً اياها من الانزلاق وهما يصعدان قاعدة السلسلة، ورأت وهما يمضيان في طريقهما الأطراف الحادة كحد الموس، ولمست خشونة السن، وأدركت حكمة لبس الحذاء المتين. وقال عات:

«انها ليست مجرد المخاطرة بجرح القدم. ولكن الشعب المرجانية يمكن أن تصيبك بقطع تسممي».

قالت بطريقة عرضية:

«نعم، قال لي لوتي ذلك. كما أنه حذرني من السمك الهلامي السام، وغير ذلك».

«هو الذي رتب لك حضور هذين الغلامين أيضاً، أليس كذلك؟»

«حسناً أنت الذي قلت لي ان عمي كان يوظف الغطاسين من الأهالي».

«أعرف ذلك. لكنني لم أكن أدرك، حتى رأيتهما أمس، مدى جديتك بشأن الموضوع كله. كنت أعتقد أنه... دعك من هذا... راقبي خطوك. لا يزال أمامنا طريق طويل».

زمت شفتيها وهي تركز انتباهها على الصخور الواقعة تحت قدميها.

كانت هذه أول مرة تشاهد فيها كريستي حدائق المياه المرجانية عن كثب.

ونسيت لفترة ما أثار استياءها من الرجل السائر بجوارها. كانت الألوان تشبه قوس قزح. نباتات بحرية من كل نوع تزدهر في كل بركة، ومخلوقات غريبة يتغير لونها كسحر تغير الحرباء، وشعب مرجانية تحت الماء تتفرع كشمعدانات أسطورية وتشكل ملعباً لومضات عروسة البحر. وفجأة قال مات:

«نعم، انه شيء رائع جداً. ولكنه ما لم يتوصل العلم الى ايجاد حل في القريب العاجل، فان هذا الجمال كله مصيره الى الانقراض».

«ولكن كيف؟»

قالت ذلك وهي تتلفت بغير إرادة منها صوب السحر الماثل تحت مياه البحيرة.

«ان الشعب المرجانية تموت، وتتآكل. وهذا سبب وجودي هنا. جزء من مشروع أبحاث يتعلق بالمناطق الموجودة في المحيط الهادي».

لمس ذراعها وقادها الى نتوء يشرف على بركة عميقة. وانحنى وجذب فرعاً مغموراً من الشعب، فانكسر بسهولة. وعندما أمسك به في الضوء أدركت أنه ميت وبلا لون. وأشار قائلاً:

«وهذا هو السبب».

كانت سمكة نجمية قنديل البحر، ولكنها كانت بعيدة كل البعد عن المخلوقات الذهبية الصغيرة السابحة في البرك الصخرية بانكلترا. كانت ضخمة مغطاة بأشواك طويلة. وقال مات:

«انها معروفة بتاج الشوك. وهي منتشرة كالطاعون منذ أعوام. وقد بدأت تتسلل الى سلسلة صخور السد الكبرى وتهاجم سلاسل صخور الجزر الى مسافات تصل الى الفيلبين و بورنيو. ويوجد فريق يعمل في هذا الشأن منذ شهور، ولكن بغير نجاح حتى الآن. انها تتوالد كالبرق. ولكن علينا أن نجد إجابة قريباً وإلاّ فستؤثر على حياة الجزر. واذا خرج نوع ما عن التوازن القائم فانه يقلب سلسلة الغذاء كلها».

وبدأ يعود الى الشاطىء، وتناولت من يده الغصن المرجاني الميت وأخذت

تتفحصه بفضول. وقالت ببطء:

«ولكن من المحقق أن هناك شيئاً يتغذى على السمكة النجمية. انني لا أستطيع أن أتخيل شيئاً يقدر على مقاومة هذه الأشواك ولكنك اذا استطعت توليد شيء يتغذى عليها»

«اننا نعرف بالفعل أعداءها. وأحد هذه الأعداء قوقع الترايتون وهنا دوره».

«نعم، المحارة الكبيرة التي تشبه النفير. شارونيا ترايتونس. انها رائعة الجمال، ولكنها كلها جميلة».

«اضطررنا في الوقت الحاضر لمنع جامعي الأصداف من أخذها. حتى تتوافر لدينا بيانات أكثر عما يسبب هذا الخطر، ونكتشف وسيلة لمعالجته».

«وهذا ما تعمل بشأنه في معملك؟»

«نعم».

وسكت، وفكرت فيما قاله لها وهما عائدان الى الشاطىء، وتوقف قرب الممر المؤدي الى كوخه وقال:

«انك الآن تفهمين لماذا لا أستطيع أن أدعك تغيرين على حياة القواقع في سلسلة الصخور بغير تمييز».

فدفعت يديها في جيبيها ورسمت بأصبع قدمها دائرة على الرمال قبل أن تتطلع اليه، وقالت:

«أوه، نعم. أفهم ذلك. ولكن مالا أفهمه هو لماذا لم تشرح لي هذا من البداية».

«كان يجب أن أفعل. ولكنني بصراحة لم أعتقد أن الأمر يستحق ذلك. ظننت أنك ستسأمين الصيد على الشاطىء، وعدم ملاءمة هذا المكان للعيش سرعان ما سوف يثبط همتك. ولكن كان يجب عليّ أن أتذكر الأعراض الانثوية، وأن أذهب الى النقيض فأحاول اقناعك بالبقاء»

حدقت في البحيرة وارتسمت على جانبي فمها ابتسامة خفيفة:

«أشك في ذلك، انني باقية. ونظراً لشرحك السليم فانني سأصفح عن عملك

التسلي في طرد الفلاحين وسأشطب الترايتون من قائمة أصدقائي».

وعندما نظرت اليه بعد لحظات صمت طويلة، كانت تؤمل خلالها أن تكون دعابتها قد كسبته، وجدته يراقبها بعينين ثلجيتين وقال:

«اسمعي يا كريستي... هذا...»

قاطعته ببرود:

«آنسة ايرفن... اذا سمحت».

التوى فمه في سخرية وقال:

«فليكن اذاً يا آنسة ايرفن... يبدو أنك لم تدركي مقصدي بعد رغم نصف الساعة الأخير. هل تفهمين أن كاليندا محظورة الآن بالنسبة لجامعي الأصداف؟»

«كلها؟»

«كلها. واذا كنت لم تدركي ذلك فان لي قدراً من السلطة في الوقت الحاضر ويبدو أنك ستضطرينني الى استخدامه. أستطيع أن آتي بأمر حماية لهذه الجزيرة، وهذا كفيل بانهاء كل جدل».

شعرت بصدمة:

«وكيف يؤثر هذا علي؟»

«هذا يتوقف على سلوكك».

«فهمت. انك مصمم على طردي من هذه الجزيرة. أليس كذلك؟»

«اسمعي. انك تحاولين أن تجعلي من هذا انتقاماً شخصياً. لقد كنت أظن...»

«ألست تنتقم مني شخصياً؟»

تجاهل مقاطعتها المفعمة بالمرارة، ومضى قائلاً:

«كنت أظن أنني أوضحت الأمور. في وسعك أن تفكري كما تشائين بالقدر الذي يسرك بين الذهاب لتفقد الطبيعة والعودة الى بيتك. مادام الأمر يقف عند هذا الحد».

قالت في صوت خفيض بارد:

«ظننت أنني أوضحت نيتي. انني جادة. لا أملك أن أقف عند هذا القدر. اذ يتعين أن أكسب عيشي و...»

«اذاً فان كاليندا هي المكان الخطأ».

وجاهدت لتحافظ على هدوء أعصابها:

«لقد استهلكت مدخراتي في القدوم الى هنا يا سيد دينهام. واذا كان والدي قد أصر على أن يودع لي في البنك ثمن تذكرة العودة بطريق الجو فليس هذا معناه أنه أب غني شغوف بابنته. انه ليس كذلك. هل تتوقع مني أن أهدر هذا كله؟»

«من المؤسف أنك لم تفكري مرتين، وأن تقومي بتحقيق أكبر في شؤون عملك قبل أن تتخذي هذه الخطوة الحمقاء. ألا تدركين أن في وسع الرجل أن يطوف بحار الجنوب على نحو لا تستطيعه فتاة؟ ان فتاة بمفردها، بلا مال، سرعان ما تقع في المتاعب».

أشارت كريستي بيدها وهزت رأسها:

«لا أريـــد أن أجادلك. ويبدو أننا نخوض بعيداً عن المسائل الهامة. انك تريد القضاء على سمكة نجمية تبدو وحشية. وأنا أريد أن أكسب وأقيم هنا لعام. حسناً سأودع قواقعك الترايتون وشأنها، وتدعني وشأني؟»

«لا، ليس تماماً».

هزت كتفيها:

«اذاً فالأمر مؤسف. أليس كذلك؟»

واستدارت بدون أن تنتظر لتسمع أية تهديدات أخرى، وأوشكت أن تعدو عدواً على الشاطئ، باتجاه بيتها.

ومرت عطلة الأسبوع بتثاقل. وبدت لها كل مهامها التي خططت لها قد فقدت جاذبيتها فجأة. ولما كانت مصممة على أن تتجنب أي اتصال بطريق الصدفة مع مات دينهام فقد قضت معظم ساعات النهار في جولات

استطلاعية هائمة حول الجزيرة. ولكنها كانت تشعر بالوحدة حتى حل الظلام، تماماً كما توقعت لم يعد في وسعها أن تتابع أفكارها.

فمضت الى الشرفة وتكورت على الأريكة. الناس يجمعون اليوم أشياء من كل الأنواع. وبعضهم يجنون بما يجمع. وهناك آخرون يزدرون هؤلاء بما يجمعون ويصبحون حجباً في شذوذهم. وبعضهم أيضاً يصيبون ثراء عريضاً. فلماذا لا تكون هي منهم؟ لقد وضع عمها ذلك في متناولها وأعد لها منطلقاً غير متوافر لكثيرين. فلماذا لا تكون لها فيللا متواضعة في جزيرة تاموئزا؟ ان المناخ مثالي. وعندما يتقاعد والدها في وسعه مع والدتها أن يحضرا الى هنا للاستقرار بعيداً عن البرد والرطوبة وسباق الجرذان.

يا له من حلم! حلم فارغ أحمق ما كان ينبغي أن توسع له مكاناً في رأسها. كم يمكن أن يمقتها مات دينهام اذا عرف. لماذا يكرهها؟ هنا تنهدت وأخفت الظلال الألم الذي بدا في عينيها. انه لا يكرهها في الحقيقة. ولكنه لا يهتم بها على نحو كاف يجعله حتى يكرهها! انه يحتقرها فقط. لماذا يصر الرجال على أن يروها في غير صورتها؟! انه يراها مجرد طفلة غير مسؤولة، تفتقر الى النضج ومدللة. وهو يريد أن يغيرها حتى ترى كل شيء من وجهة نظره. لماذا لا يقابلها في منتصف الطريق. ويدرك أن في وسعها التعاون معه عن رضى، وأن تدعه يوجهها فقط اذا قبلها كما هي؟ لقد كان ستيفن مثله تماماً.

ولأول مرة منذ القطيعة حاولت أن تنظر الى ما حدث ببرود وموضوعية، وأن تكون صادقة. هل كان تصرفها غير معقول؟ انه لم يتغير شيء سوى أنها الآن أدركت الحقيقة. لقد أراد ستيفن أن تتغير. وصفها بأنها حالمة، خليط عنيد يفتقر الى اللباقة من المشاعر والتصميم. قال لها انها مالم تتغير نظرتها كثيراً فان زواجهما لن يفلح.

ونهضت لتستند على سور الشرفة وتحدق في جنتها بدون أن ترى شيئاً. كانت البحيرة مفعمة بماء يترقرق بين اللونين القرمزي والذهبي. وأشجار النخيل تبدو

كأشكال غريبة في خلفية وهج الغروب. ولكنها لم تر إلاّ الماضي.

وأخيراً أدركت ماذا كان يمكن أن يعني زواجها من ستيفن. الجهاد المستمر لتظل متقدمة. تكوين صداقات مع أناس يمكن أن يفيدوا ستيفن في عمله مستقبلاً. جولات الترفيه والحفلات. ارتداء وجه النجاح والثقة دائماً. والتلطف مع أناس لا تحبهم. في الوقت الذي يزداد فيه نفاد صبر ستيفن معها.

قال لها مرة ان كل الناس مضطرون الى ذلك. ولكنها لم تستطع أبداً التودد الى أناس لا تحبهم أو لا تثق فيهم. أما فيما يتعلق بالتعارف مع ذوي النفوذ، فان لها رأيها الخاص.

كان لا يزال يؤلمها بمرارة أن تتذكر القطيعة الأخيرة. الحفل الذي ذهبت اليه ومقابلة أحد مديري شركة ستيفن. لقد أصابتها رجفة الاحساس بالخطر عندما قدمت الى هذا الرجل الذي كان ستيفن لا يكف عن تملقه. وأدركت قبل أن تنقضي السهرة بوقت طويل أن الاهتمام الأبوي الذي أبداه الرجل بفتاة ستيفن الصغيرة كان يخفي ضرباً آخر مختلفاً من الاهتمام. وعندما جاء الغزل في شكله المستتر المقزز غضبت ولم تستطع أن تخفي تقززها. ولكن هذا لم يكن شيئاً اذا قورن بخيبة الأمل الأليمة التي شعرت بها عندما اهمل ستيفن الموضوع وقال لها الأرجح أن يكون نصفه من تخيلها. هل تخيلت إمساكة الرجل بها بشدة، وهو يرمقها بنظرات غرامية، ويتودد اليها بفظاظة، وأنفاسه المفعمة برائحة الشراب تلفح عنقها؟

وعندما عاد بها ستيفن أخيراً الى البيت انفجر الشجار على نحو حيرها وأفزعها. وناولته الخاتم قبل أن تدرك تماماً ما تفعل. ولكنها في صباح اليوم التالي بدأت تدرك الحقيقة وكلمات ستيفن المريرة. لماذا لا تكبرين. كالندوب في قلبها. لقد كان ستيفن يريد فتاة مرحة، هشة، متحذلقة. فتاة حفلات تستطيع أن تقول الأشياء الملائمة للناس الملائمين ولا تضيع وقتها على أشياء أو أناس بلا فائدة. هو لا يحبها اذاً. ليس بالطريقة التي أرادت أن يحبها أحد. لو أنه كان يحبها

لأوقد خاطر أن يضع رجل آخر يديه على فتاته. هذا على الأقل ما تتصوره كان واجباً. ربما كان هذا كله أيضاً حباً أحمق. ربما لا يفكر الرجال على هذا النحو.

ولكن ماذا ستفعل الآن؟ لم يكد يمر عليها أسبوع وهي الآن قد وقعت فريسة اليأس.

وأخيراً أشرق فجر الاثنين. وكانت مستعدة منذ وقت طويل عندما ظهر اللنش في الأفق ليحملها الى تاموتوا. وعندما نزلت الى الشاطئ، قررت أن تحجز لها غرفة في الفندق أولاً قبل أن تخرج للتسوق ومقابلة صديقيها الوحيدين. ان لوني وبن في صفها على الأقل حتى وان اضطرا الى تأكيد ما يدعيه مات ديتهام بشأن سلطته.

قال بن:

«نعم، أظن أنه كان يجب علينا تحذيرك. ولكننا لم نشأ أن نفسد عليك آمالك قبل أن تذهبي الى هنالك».

وغمغم لوني في تفكير:

«ولكنني لا أفهم بعد لماذا أصبح مات سمجاً هكذا. انه فتى لطيف ولم أفكر أبداً في أنه يمكن أن يفرض سلطته على هذا النحو. ماذا ترى يا بن؟»

لم يجب بن إلا بهزة استسلام من كتفيه. وتنهدت كريستي قائلة:

«ربما أنه لم يألفني».

وفعلا كل ما في وسعها لاثارة بهجتها ثم خرجت الى الحلاق الذي أكد لها لوني أنه سيغسل لها شعرها بالشامبو ويصففه لأن تاموتوا أصغر من أن يكون فيها كوافير للسيدات على النمط الغربي. وقد أدهشها الحلاق الفيليبيني الشاب بعمله وخرجت راضية مبتهجة. وزاد من بهجتها أنها وجدت رسالتين من الوطن تنتظرانها في مكتب البريد. وبعد أن أكملت عملها وتسوقت واستعدت للعشاء مع لوني وبن كانت في حال أفضل قامة وأفلحت تقريباً في نسيان مات ديتهام.

وخلال العشاء في الفندق، الذي كان المركز الاجتماعي الوحيد في الجزيرة، قدمها لوني وبن الى كل من يعرفان. فقابلت مسؤول الميناء وضابطه الثاني، والممرضة الفرنسية الشابة الجذابة، وابنة أخ الطبيب واسمها جين، وكثيرين آخرين. ودارت الذكريات حول عمها، وعرض عليها البعض استعدادهم للمشورة في عملها. وعندما عادت الى غرفتها كانت متوهجة الوجنتين، تشعر بالسعادة.

على أن أمرين نغصا عليها، أولها أنها شاهدت من الشرفة قبل أن تذهب الى فراشها مات ديتهام وصديقته الثرية ميلاني هايدون. كان من الواضح أنهما يختتمان سهرة ممتعة مثل سهرتها ان لم تكن أكثر رومانسية. أما الثاني فكان ينتظرها لدى عودتها الى كاليتا في اليوم التالي. كان خزان المياه قد فرغ تماماً مما فيه، ولم يكن هنالك مورد آخر للمياه العذبة في أي مكان بالجزيرة!

٤ - جلسة رومانتيكية

كان ردّ فعلها الأول أنها لم تصدق. ربما كان الخزان مسدوداً. فأخذت تلوي الصنبور مرة ومرة، فلم تخرج منه سوى قطرة أو قطرتين. وأخيراً كفت عن المحاولة وأخذت تجول في الخارج. ماذا تفعل الآن؟ لو حدث هذا قبل أن تغادر الجزيرة الى تاموتوا، كان يمكن أن ينقل اليها لوني شحنة عاجلة حتى تأتي سفينة الماء. وأدركت أن هذا يحدث كثيراً في الجزر الصغيرة حيث الماء سلعة ثمينة تخزن بحرص وحذر. ومن الواضح أنها كانت مفرطة الاهمال في تخزينها.

نظرت الى السماء الخالية من السحب وعادت الى الداخل. ما لم تمطر في اليوم التالي فلن تجد بديلاً عن السعي في طلب مات ديتهام لتسأله أن يبعث باللاسلكي رسالة عنها. لم يكن ذلك أمراً يسعدها، وقد ثارت عليه كل ذرة في كبريائها. ولكن ماذا يمكن أن تفعل غير ذلك. لا بد أن تكون عندها مياه للشرب.

أفاقت على هذا الخاطر فشرعت لاحصاء ما لديها من موارد للمياه. على أساس أنها لو استطاعت البقاء هكذا يومين أو ثلاثة أيام لكان من المحتم أن يأتي اليها لوني أو أحد. لأنها وجهت الدعوات الى الجميع لزيارتها. ولكن لو تضمن فقط ألا تعطش عندما يشتد قيظ النهار. ان ما تبقى من زجاجتي المياه المعدنية وعصير الفاكهة لن يدوم طويلاً. ولن تستطيع الاكتفاء بزجاجة الشراب. هنا دفعها تصميم مباغت الى الخارج مرة أخرى، لاكتشاف دواخل الجزيرة. لا بد أن

يكون هناك ماء في مكان ما. شيء يحيي هذا الخليط من الطحالب والمتسلقات التي تسرح بين أشجار النخيل، وكذلك طيور الجزيرة. ولكن لعل هذه الطيور تتميز بعمليات تمثيل خاصة تمكنها من تحويل الماء المالح الى ماء عذب. ما لبثت أن عادت وهي متعبة، تشعر بالحرارة، وأكثر عطشاً مما كانت. ومع ذلك ظلت مترددة تماماً في الذهاب الى مات ديتهام.

لم تتناول الشاي في ذلك اليوم أو في اليوم التالي، ووجدت صعوبة في افتقاد هذا الشيء الانكليزي الخالد الذي يذكرها بالوطن. وبقيت في الظل، تشغل نفسها بالخياطة والقراءة وتزداد كراهية لمات ديتهام. انه لم يسأل عنها منذ يوم الجمعة! وهو يعرف أن لا صلة لها بأحد غيره. وقد لا يهتم بها حتى لو ماتت عطشاً. لماذا لم يأت الليلة؟ حتى ولو لمجرد الاحساس بغزوته الجميلة؟ ولكن لا أثر لحياة تعكر هدوء مرآة البحيرة الخضراء. ومرّ اليوم التعيس الثاني بتثاقل. لم يكن هناك أثر حتى لمات ديتهام. وهذا أمر ينذر بالشؤم. وداهمها خوف عندما خطر لها أنه ربما لم يعد الى كاليتا. ربما يقضي بضعة أيام في البلدة الصغيرة. وهذا يعني أنها بقيت تماماً معزولة عن أي اتصال بشري.

وشربت بضع جرعات من آخر زجاجة مياه معدنية. كانت ممتلئة الى نصفها. وأوت الى الفراش وهي فريسة خوف حقيقي. لم يعد هناك في الزجاجة للصباح إلا ما يملأ ربع فنجان.

ومر وقت طويل قبل أن يغشاها نوم مضطرب. استيقظت منه فجأة في منتصف الليل على عطش شديد. وقد أوحت اليها السماء بفكرة أرادت معها أن تقفز من الفراش قفزاً. ولكن كان عليها أن تنتظر الى الصباح. كيف لم تذكر القلاصين من قبل؟ وهنا جرعت بغبطة ما بقي من المياه المعدنية وتذرعت بالصبر حتى الفجر.

كان الفرع المسنون لا يزال هناك في شق الصخرة حيث ثبته القلاصان كالاسفين. فأخذت تبحث وهي مضطربة الأنفاس عن ثمار الجوز الساقطة

وشرعت تقلد ما فعله الغلامان في شق قشرتها. ها هنا سائل غير محدود سيظل قائماً ما دامت هناك ثمار تدر عصيراً لذيذاً بارداً. في وسعها بذلك الصمود حتى يأتي لوني، وتظل مستقلة في غنى عن مات دينهام.

ولكن الأمر لم يكن بالسهولة التي توقعتها. فقد كانت الثمرة تنحرف بدل أن تنشق، وعندما نجحت في شق القشرة كسرت معها اللب أيضاً. وتدفق اللبن في الرمال فكادت تبكي من الغيظ. حاولت مرة ومرة أخرى بقوة، وأطلقت صيحة عندما أنكسرت القشرة. ولكن صيحة الفوز تحولت الى ألم عندما انزلقت يدها ودخل سن الفرع في ذراعها.

سقطت على ركبتيها وهي تمسك بذراعها الدامية وعيناها تعتصرها دموع الألم. وقد خرجت الثمرة الى الهوة لتفرع الأمواج. ولم ترها لأنها كانت تحاول ربط منديل صغير حول ذراعها وألا تستسلم لمرارة اليأس. لم يتوقف النزيف ولم يكن لديها ما تضعه عليه. وفكرت في أن تستحم في مياه البحر لوقف النزيف. ثم انتابتها موجة دوار فجلست القرفصاء آملة أن تمر ولم تر الظل الطويل الذي أمتد أمامها على الرمال، حتى انحنى مات دينهام عليها وأمسك بكتفيها على نحو آلمها.

«ماذا فعلت بنفسك؟»

«جـ... جرحت نفسي».

لا بد أنه سمع الهمهمة الخفيفة لأنه ردد الكلمتين ثم جلس بجوارها.

«دعيني أرى».

وجذب بغير رفق يدها التي كانت تحجب بها ذراعها وفحص الذراع.

«رأيت ألاعيبك وخفت أن شيئاً مثل هذا سيحدث. اذا كنت تريدين كسر ثمرة من ثمار جوز الهند فلماذا لم تأتي اليّ وتسأليني بدلاً من...»

احتفظت بوجهها بعيداً عنه حتى لا يرى دموعها، وقالت:

«انك لا تفعل أي شيء أطلبه منك. انني سأ... لست في حاجة الى أن تهتم... ففي

وسعي أن...»

وأنهضها على قدميها قائلاً

«هيا. هذا جرح بليغ... لا بدّ من تضميده»

«أستطيع أن أتدبر أمري... انك...»

«بماذا؟ بهذا؟»

وبأصبع قدمه ركل المنديل الصغير المشبع بالدم في الرمال الناعمة. وأخرج منديله ولفه حول ذراعها بحركات سريعة قائلاً:

«أراهن أنك لم تأتي معك بشيء يمت بصلة ولو من بعيد لصندوق الاسعافات الأولية. هذا يكفي في الوقت الحاضر»

وأمسك بذراعها ودفعها الى الامام كأنها طفلة غير ذكية لا بدّ من أن يعنى بما أصيبت به خلال لعبها. وحاولت أن تحتج وهي تتراجع. فالتفت اليها قائلاً:

«أوه... هيا يا كريستي... هل لا بدّ أن تجادلي في كل شبر من الطريق؟»

وكانت خشونة نبراته بمثابة القشة الأخيرة. فارتعش فمها ولم يعد يطيع ارادتها، والتوى بقوة النشيج الصامت الذي أخذ يهزها. ووقفت بينما صاح مات دينهام عجباً. ثم تغيرت تعبيراته وكأنما بغير إرادة منه فمسّ كتفها، وتردد ثم قال في صوت أرق:

«لا تخافي. سيكون الأمر على ما يرام. يبدو أسوأ مما هو في الحقيقة»

هزت رأسها وهي تحاول استعادة سيطرتها على نفسها:

«ليس هذا ما أعنيه... انه... أوه... أذهب عني وأتركـ...»

«لا أستطيع ذلك»

ومرت بوجهه علائم حيرة، وزم شفتيه وأدارها نحوه بقوة لتواجهه:

«أعرف يا كريستي أنك تزدرين مرآي. ولكنني لن أنصرف قبل أن أعنى بهذه الذراع. وقد أضطر الى أخذك للدكتور شالمرز فيحسن اذاً ان تكوني متعقلة»

بقيت صامتة وهو ينظر الى رأسها المنخفض. وبعد لحظة رفع يده ودفع شعرها

البني الناعم الذي انسدل وغطى وجهها. وقال:

«قلت الآن لتوك انني لا أفعل اي شيء تطلبينه مني. ولهذا فانني أفعل ما يتسق مع هذا القول».

فأحدثت فيها النبرة الجديدة في صوته، ولمسته الرقيقة التي طالت على حاجبها، شعوراً عنيفاً. فارتدت الى الخلف وحدقت فيه بعينين يطلّ منها الكرب والألم.

«انك لا تفهم! ليس هذا ما أعنيه! انه فارغ... الخزان! لقد جئت وأنت تقف هنا لتقول لي أن أتعقل وأن كل شيء سيكون على ما يرام لايوجد شيء على ما يرام أو...لماذا يتحول كل شيء أفعله الى خطأ؟»

وفجأة تهدج صوتها وانهارت. وانحنى كتفاها وهي تهمس في يأس:

«كم أنا عطشى»

«عطشى؟ ماذا...تعنين؟»

وتوقف صوته، وكانت بالغة الأرهاق فلم تستطع أن تحدد بالضبط اللحظة التي امتدت فيها ذراعاه وضمتاها اليه. وترك وجهها يستريح على صدره. وظل صامتاً وهي تسر له ما حدث بايجاز غير مفهوم. وأخيراً شهق بعمق وربت على وجنتيها الساخنتين. فتراجعت وقد بدا أنها ستقول شيئاً ثم هتفت في همس متقطع:

«لقد لوثت قميصك بالدم»

«لا يهم»

«ولكنه لن يذهب»

«لا يهم. تعالي»

ولم تجادل هذه المرة. واحتفظ بذراعه حولها وهو يمسك بها مقوسة الى جانبه، ويسير بها على الشاطىء الى الكوخ الأخضر وهناك أجلسها، وكان أول ما فعله أن أعطاها كوباً من المياه النقية المثلجة.

«أتوقع أن هذا هو أكثر ما تطلبينه من الدنيا في الوقت الحاضر»

وراقبها بلا تعبير على وجهه وهي تجرع الماء عطشى. وتجنبت نظرته المحدقة، ولكنها أومأت عندما سألها:

«أتريدين كوباً آخر؟»

«نعم، أرجوك. كيف تحتفظ بها باردة هكذا؟ انها مثلجة تقريباً»

قال وهو يتناول صندوقاً من الصفيح الأبيض، عليه صليب أحمر، من خزانة:

«خزانة تبريد. انني أحصل كذلك على ثلج. ولكنني نسيت أن أملأ الصينية بالماء ليلة أمس»

ولاحظت المصباح وهي تتفحص الغرفة بحذر:

«لديك أيضاً طاقة كهربائية. كيف؟»

«مولد صغير على غرار مولدات الجيش. كان عمك يتحدث عن استثمار بعض أمواله في أحد هذه المولدات قبل أن يموت. هذا قد يؤلم»

«لا بأس»

امتلكت زمام نفسها الآن وأخذت ترشف مياه الكوب الثاني ببطء، محاولة أن تبدو وكأن انهيارها على الشاطىء لم يحدث. هناك شيء ما في قوة مات ديبهام وفي يديه الثابتتين جعلها تشعر بأنها صغيرة، وشابة، وعرضة للاصابة. وللحظات لم تكف عن تذكر الطريقة التي مشى بها عبر الشاطىء، كانت غريبة جداً. ولكنها الآن وهو لم يعد يمسها لا تزال تشعر بالقوة الدافئة لذراعه حيث ألقت كتفها.

قال وهو يتحرك بعيداً ويغلق الصندوق:

«تمام؟»

فأومأت برأسها وهي تطلق نفساً متقطعاً للتنفيس عن توترها. ونظرت الى الرباط الأبيض النظيف حول ذراعها وحركت يدها:

«نعم، أشعر بالذراع سليمة. أشكرك يا... مات؟»

رفع حاجبيه

«هذه أول مرة تناديني فيها باسمي»

«وهل تعترضين؟»

«لا..على الاطلاق. ولماذا أعترض؟»

لم تنم تعبيراته عن شيء. فهزت كتفيها هزة خفيفة بدت وقحة:

«لا أدري. لقد ناديتني باسمي منذ البداية»

«واعترضت أنت على ذلك بقوة في اليوم السابق»

«لأنك جعلتني أشعر كأنني...»

وتوقفت فجأة. وكانت على وشك الاعتراف بأن الطريقة التي تحدث اليها بها في المناسبات التي التقيا فيها جعلتها تشعر بأنها طفلة خرقاء. قال وعيناه تشعان بومضة سرور:

«نعم..أجعلك تشعرين بماذا؟»

«لا..لا يهم. هل أستطيع استخدام جهاز الارسال للاتصال بلوتي؟»

«قطعاً. انه هناك. تفضلي»

التفتت بعيداً وقالت:

«أنت تعرف أنني لا أعلم كيف استخدمه. عليك أن تساعدني»

«أعرف ذلك. ولكنه قد لا يكون ضرورياً»

ورد باشارة من يده على نظرة الدهشة السريعة التي بدت في عينيها وقال:

«دعي ذلك في الوقت الحاضر. هل أنت جائعة؟»

فكرت لحظة وأجابت:

«حسناً.. هذين الكوبين من الماء كانا بمثابة إفطار عظيم. كنت على وشك تناول جوز الهند. ولكنني أحاول ألا أكون نهمة»

«بالرغم من ذلك.. حاولي مشاركتي..»

«ألم تأكل بعد؟»

«كنت على وشك أن أبدأ عندما لاحظت ألاعيبك مع القرع والثمار»

«أوه.. يحسن بي أن أدعك تتناوله.. و..»

«ستأتين وتتناولين شيئاً في أي حال. فأنا أريد التحدث اليك»

اختفت معالم السرور وبدت نبرة قاتلة، مألوفة على الفور. لم تحتمل الجدل ووجدت نفسها تطيعه في تواضع عندما طلب منها الجلوس الى المائدة الصغيرة بالشرفة. كان الطاقم عليها معداً لشخص واحد فاتخذت المكان المقابل. وهي تدرك مرة أخرى مدى الرهبة التي يمكن أن يبثه فيها. هل تتبعه وتعرض عليه المساعدة؟ أم يظنها تكثر من السؤال؟ فيم يريد أن يحدثها؟ هل هو..؟..ونفذت اليها رائحة قهوة لذيذة جعلتها تنسى احتمالات أي شيء، غير سار سوف يقع، وأدركت أنها جائعة جداً مثلما هي عطشى. وعاد عندئذ باناء القهوة في يد وطاقم مائدة في اليد الأخرى. فقفزت لتتناول الفنجان والطبق من يده ووضعتهما على المائدة. واحمر وجهها عندما سقطت منها الملعقة وانحنت لتناولها. ودفع نحوها بصحن الشطائر وأشار الى طبق الفاكهة قائلاً:

«حسناً هيا..لقد فات وقت الخجل»

«لست خجلى. انني أحاول أن أكون مؤدبة»

قالت ذلك في استياء، وهي تتناول إحدى الثمار. فأخفض رأسه ثم هزها وهي على وشك أن تدلي باحتجاج آخر.

«كلي أولاً. ثم تحدثي»

أطاعته بعد نظرة ارتياب اليه. وبعد أن صب لنفسه فنجاناً ثانياً من القهوة. أسند ظهره الى الخلف ونظر اليها بعطف لم يظهره من قبل وقال:

«أفضل الآن؟»

«نعم. أشكرك»

وتنهدت بعمق. وقابلت النظرة المحدقة بثقة أكبر وأردفت قائلة:

«لقد استمتعت به. ربما لأنه لم يكن متوقعاً.. انني.. يا مات آسفة جداً.. على ما ظهر مني على الشاطئ».. أعني اغراقك ببكائي، وصرفك عن افطارك

وكل شيء. انني أعرف أن نظرتنا لا تتفق الى الأمور... ولكن...»

وهنا ترددت وهي تشعر بالاحمرار يصعد الى وجنتيها. ثم أكملت:

«حسناً. لقد سرتني رؤيتك هذا الصباح».

ظل صامتاً للحظة. ربما لأنه دهش لهذا الاعتراف الصغير التلقائي. ثم قال بهدوء:

«أهذا غصن الزيتون؟»

رفعت رأسها بحدة:

«بالطبع لا! انني أحاول فقط أن أشكرك».

«تقولين الشيء الصواب؟»

«اذا أردت النظر الى الموضوع على هذا النحو».

وشعرت بخيبة أمل ولم تدر لماذا. وتحركت كأنها على وشك النهوض، ثم تذكرت أنه يريد التحدث عن شيء، فعادت لجلستها:

«ماذا أردت أن تقول لي؟»

ظل مرة أخرى صامتاً للحظة، ثم وضع يديه على المائدة وانحنى الى الأمام:

«لماذا أنت بالغة العناد ومتحمسة هكذا يا كريستي للأمور التافهة، وبالغة السرية والصمت إزاء الأمور الهامة؟»

قطّبت جبينها قائلة:

«لست أفهم ماذا تعني؟»

«سأترك ذلك لتبينيه... هل فكّرت بما قلته لك في ذلك اليوم؟»

كان هناك شيء في الطريقة التي تحدث بها جعلها تتردد ثم أجابت بحرص:

«نعم. يبدو أن هناك نتائج أكثر خطورة.»

أومأ برأسه، وفي عينيه ضوء لا يسبر غوره:

«وهل ستتصرفين طبقاً لذلك؟»

هبطت معنويات كريستي، ورغم روح الانتعاش الجميل التي بعثها اليوم

الجديد فقد غمرها الاعياء. سيبدأ هذا كله مرة أخرى! سيحاول أن يبعدها عن الجزيرة. وان كان يجرب الآن طريقة مختلفة. يبدو أكثر لطفاً وتعقلاً وسيكون من المستحيل تحديه هذه المرة. وهي تعلم في قرارتها أن عمله وهدفه أهم من عملها وهدفها فهما مجرد نزوة شخصية اذا شاءت أن تكون صريحة تماماً مع نفسها. أما عمله وهدفه فحلقة من سلسلة ذات أهمية علمية. يجب أن يكون لها الأسبقية. ولكن ليس من السهل عليها أن تسلم بذلك. ليس بعد أن قطعت هذا السفر الطويل، وراودها حلمها، وأغرمت بحب زمردة مرجانية خضراء في المحيط الهادي.

«يا لكريستي المسكينة... لقد لقيت ترحيباً بالغ الخشونة على إرسائك في الجزيرة».

تساءلت عما اذا كانت كلماته أصداء لأفكارها الحزينة. فأبتعدت بوجهها قائلة:

«هذه هي الحياة».

«تتصورين الأمر وكأنه نهاية العالم».

هزت كتفيها قائلة:

«الحضور الى هنا كان بمثابة الحضور الى عالم آخر. ولكنني عندما أعود الى موطني... لا أدري كيف سأشرح لأسرتي خسارتي المعركة أمام سمكة نجمية متوحشة.»

وعلى غير توقع بدأ يضحك، ونهض وهو يربت على كتفها بخفة قائلاً:

«في الموضوع ما هو أكثر من ذلك. ولا أقول أنك خسرت... بعد. هيا بنا نفحص هذا الصهريج».

«صهريج؟»

«هذا الشيء الذي تسمينه خزاناً».

كانت قد نسيت أزمة الماء خلال نصف الساعة الأخيرة. ويبدو أن مات دينهام قد عانى تغيراً في حاله. هل يمكن أن يكون حدث طفيف صغير، وجرح صغير نازف، قد اصطنعا شقاً في هذا الدرع الصلب؟ ان الأمر يستحق بعض

الألم. هكذا فكرت في تشاؤم. ثم تذكرت أنها سلمت بالهزيمة تقريباً وأن في وسعه أن يكون الآن رحب الصدر. فلعله يفترض أنها سترحل في المستقبل القريب جداً.

لم تغب الشمس الذهبية الفاتنة الرعشة التي زحفت عليها وهي تسير صامتة بجوار مات دينهام. لم يكن من السهل الاعتراف بأن كل شكوك أسرتها واحتجاجاتها كانت قائمة على أساس جيد. ولكن عليها أن تعود في آخر الأمر، ما لم تجد عملاً، وتتقدم وتشق طريقها. فتيات أخريات فعلن ذلك. لم لا تفعله؟ انها تعتمد على نفسها، وذكية على نحو معقول، ويمكنها أن تتلاءم مع الظروف. ولكن هذا الخاطر لم يرق لها. فليس هنا سوى مجال ضيق لها. وهي تريد أن تقيم هنا في الوقت الحاضر على الأقل.

وانصرفت الى الداخل فور وصولها الى البيت بينما أختفى مات دينهام في الجزء الخلفي من المبنى. ذراعها بدأت تنبض بالألم، ولم تر فائدة من تضييع الوقت في التطلع الى صهريج فارغ فهو يوحي بفأل هزيمة سيء. والتقطت صدفتها التي كان عمها قد أعطاها اياها منذ زمن بعيد وأخذت تربت على سطحها اللؤلؤي الناعم قبل أن تضعها على أذنها.

وسقط عليها ظل مات دينهام وهو يقول:

«جهاز البرق الأول. انها تحادثك فقط تلك التي تسمعينها».

وضعت المحارة قائلة:

«بل قلبي. انك لست خيالياً بالمرة».

«لا بأس. لا أقتنع بالخيال. ولكن في وسعك أن تستحمي من جديد».

«أستحم؟ لا تحاول خداعي يا مات. كدت أخلع هذا الصنبور من فرط تيه. ولم يكن ذلك من أجل ماء الاستحمام».

«تعالي وشاهدي بنفسك».

تبعته غير مصدقة ورأت الغلاية التي يحملها مليئة بالماء.

«لكنني لا أفهم».

«لقد ركب عمك الصهريج مرشحاً. ولكنه كان يسد أحياناً. وكان عمك يترك كل شيء حتى يتساقط أو يتوقف عن العمل تماماً».

«أعرف ذلك. ولكن كيف علمت بنبأ المرشح. انني لم أعرف حتى بوجوده».

أشار الى السلم المستند الى نهاية الحظيرة قائلاً:

«انك لا تفكرين بالطبع في القاء نظرة هناك. عندما تعتمدين على كميات قليلة من سلعة ثمينة مثل الماء، فعليك أن تعرفي بالضبط كيف تتفقدين مواردها. فهذه أمور لا تترك للحظ يا كريستي. بل يجب أن تساعدي نفسك فيها قليلاً».

«انني أدرك ذلك. لم أشك أبداً في أن لدي الكثير لأتعلمه».

قال بإشارة مهدئة، وبلهجة ساخرة في الوقت نفسه:

«حسناً. يا لك من طفلة شائكة. شائكة كتلك السمكة النجمية الملعونة. انني أحاول ببساطة أن أوضح لك سبباً آخر لعدم نجاحك. الرجل يفكر على نحو آلي في هذه العقبات، في أمور لا تفكر فيها المرأة عادة إلا بعد فوات الأوان. بنفس الطريقة التي تعرف بها المرأة أن طهوها سيحترق. بينما الرجل لا يعرف. انها الغريزة. وفي وسع الرجل أن يشق طريقه، ويتدبر أمره في خطوته».

تنهدت وزمت شفتيها وقالت:

«لا أمانع في شق طريقي».

«لم يكن هذا هو كل ما قلته. انك لم تتدبري أمرك عندما وجدتك منذ ساعة».

بقيت صامتة بعناد تتنهد في نفاد صبر وقال ببطء:

«وهذا ما يقلقني. فتاة تحاول انتهاج أسلوب حياة أختاره عمها».

«ولكنني لا أفعل ذلك».

فاستبعد احتجاجها قائلاً:

«منذ متى وهذا الصنبور معطل؟»

«منذ يوم الاثنين».

«ثلاثة أيام؟ أتعنين أنك ظللت بلا مياه للشرب ثلاثة أيام؟»

أومأت برأسها فانطلقت آهة بغير إرادة منه. انطوت على نبرة الغضب.

«ولماذا لم تخبريني؟»

«لم أرد أن أزعجك».

«تعنين أنك كنت مفرطة الكبرياء؟»

وجدت صعوبة في مواجهة نظرته المحدقة التي تنطوي على الاتهام. فأشاحت بوجهها:

«ربما. هل تقلق عليّ حقاً يا مات؟»

ساد صمت قصير ثم قال بصوت أجش:

«انني لا أقول في العادة أموراً لا أعنيها. ولكنني أتساءل عما اذا كان في وسعك أن تقولي مثل ذلك عن نفسك».

التفتت اليه للحظة. غير موقنة من عنصر خفي جديد دخل علاقتهما القصيرة. وساورها انطباع عابر بأن خشونته تغلّف دفاعاً عن النفس مثلما يخفي تحديها العنيد دفاعها عن نفسها. وتخلصت من هذا الخاطر على الفور باعتباره من وحي خيالها الأحمق. لا يوجد في تصرفات مات ديتهام ما ينبيء بالدفاع. بل يثبت أنه أكثر إنسانية بقليل مما ظنته. لكنه لا يزال يحترض على وجودها في كاليندا. ولن يهدأ باله حتى يقنعها بحزم متاعها. عادت متباطئة الى غرفة الطعام، ومنها الى الشرفة. وأراحت يديها على السور، وهي تشعر به يتبع خطواتها. وعندما وصل الى جانبها قالت ببطء:

«أتعرف يا مات.. انا لست بالضبط كما تتخيلني. لم آت الى هنا لمجرد الهروب، أو لمتعة السفر، أو لأن الأمر هنا سيكون مسلياً. لقد جئت لأن الأمر كان تحدياً وفرصة لأصمم لنفسي حياة جديدة مستقلة.. حياة مختلفة».

وتوقفت وهي تشعر به ينتظر أن تتم حديثها. ثم أردفت:

«وهناك كذلك شيء بدا كأنه يدفعني دفعاً على نحو لا أستطيع أن أحلله أو أفسره. ولكنني لا أتوقع منك أن تفهم هذا».

«لا خيال لدي وبعيد كل البعد عن الرومانتيكية؟»

«ممكن. ومع ذلك فما دمت هنا، فهناك...»

وتركت الكلمات تذبل على شفتيها بينما مضت الى المكتب الرث وفتحت أحد أدراجه، والتقطت، ومات يرقبها بفتور من الشرفة. قصاصة ورق عادت بها اليه:

«هذا نصف المبلغ. كنت أنوي أن آتيك به صباح الثلاثاء، ولكنني نسيته بسبب قلقي على سائر الأمور. لا تزال هناك أشياء لا بدّ من فرزها بالنسبة لشؤون عمي، وهي تبدو صعبة بعض الشيء. وهذا يفسّر لماذا لم اعطك المبلغ كله. ولكنني سأحاول تسويته في أقرب وقت مستطاع. وقد أتمكن من بيع الزورق وغير ذلك من الأشياء التي لن أستطيع أخذها معي في العودة».

حدّق في الشيك الذي اعطته اياه، ولكنه لم يحاول تناوله، وعندما نظر اليها من جديد، بدت عيناه قاسيتين:

«كنت أظن أنني أوضحت نياتي تماماً إزاء هذه المسألة».

حدّقت فيه بدورها بثبات:

«نعم، ولكن نياتك لا تطابق نياتي. لا أستطيع أن أرث ممتلكات عمي بغير ديونه. أرجوك خذه يا مات».

مدّ يده ببطء وتناول الشيك، ثم مزقه بدون أن ينظر اليه وترك قصاصته تسقط من فوق السور، ثم قال بهدوء:

«لقد أخذته. وهذا ينهي الموضوع. راضية؟»

فقالت بقوة وهي تحدّق فيه بذهول:

«لا. لست راضية».

«اذاً، فأنت لست رومانتيكية على نحو يكفي لأن تعتبري هذه لفتة مسرحية».

«كلا. لا أستطيع. مهما نظرت الى الموضوع فلا يمكن أن تنكر الحقيقة الواضحة. انك تعطيني مالاً. فكيف يمكن أن آخذه؟»

«انني لا أعطيك شيئاً يا كريستي. انني أتناسى دين رجل ميت. وهذا شيء مختلف بالمرة».

«انه ليس كذلك. لا فائدة. لا أستطيع أن أرى الأمر على هذا النحو. لا أستطيع يا مات، ما لم... هل يمكن أن يكون القارب ذا فائدة لك؟».

«ليس في الوقت الحاضر».

«حسناً. لا أستطيع أن أترك الأمر هكذا».

وانصرفت الى سور الشرفة، وأخذت تحدق في ومضات البحيرة الساكنة. وأردفت:

«ألا تفهم! إن عمي كان يود مني أن أفعل ذلك».

«نعم. أعرف هذا».

«اذاً لماذا؟».

ساد صمت ثم تحرك الى جانبها:

«اسمعي يا كريستي. انني لم أشأ أن أقول هذا. ولكنك لا تدعي لي خياراً لا أظن أنك عرفت عمك جيداً. واذا كنت قد عرفته فانك تتعمدين إغلاق عينيك عن الحقيقة».

«لا تقل شيئاً ضده. فلن أصغي اليك».

«لن أقول شيئاً ضده. أحاول إبلاغك أنني أعرف أنه لم يكن في وسعه أن يترك لك الكثير نقداً... مجرد قارب، وبعض المعدات، ومنزل ليس فخماً».

«مسكن متداع... لماذا لا تقولها؟».

«نعم. كوخاً. وعملاً ليس مربحاً كان يعكف عليه عندما يشعر بميل الى ذلك ولكن المال النقدي... قليل جداً. أليست هذه الحقيقة؟».

قالت بدون أن تنظر اليه. وفمها لا يزال مزموماً:

«أظن ذلك. ولكنه اذا كان لا يستحق إلا النزر اليسير. فلماذا أردت شراءه».

«عندي أسبابي الخاصة. ولكن ليس لديّ الوقت لأخوض فيها الآن. انني أتوقع

زواراً... وهؤلاء هم قد يبدو».

«أوه».

قالت ذلك وتطلعت الى القش الذي كان يتهاوى على سطح البحيرة. وتذكرت ميلاني الجميلة بمرارة بدت عميقة على نحو مدهش في صوتها:

«إنها صديقتك».

«ليست صديقتي. انهما زميلان من رفاق العلم. بالغا الجاذبية جداً لمقارنة نتائج أبحاثهما مع نتائج أبحاثي. ولا بد أن أذهب وألقاهما لاجراء هذه المقارنة».

«عن الشعب المرجانية تاج الشوك؟».

انتصب في مكانه وواجهها. وقال مؤيداً:

«عن الشعب المرجانية وتاج الشوك. وعندما ينصرفان. سأعود لأتحدث اليك. لدي اقتراح سأطرحه عليك. فهل تستطيعين أن تسلّي نفسك حتى ذلك الحين؟».

وماذا يظن أنها تفعل منذ جاءت؟!... كانت لا تزال مرتبكة ومرهقة الذهن بأفكارها المضطربة عن الدين. على نحو لم تستطع معه أكثر من أن تومىء برأسها. فما لبث أن غادرها ملوحاً وأخذ يخطو بخطوات واسعة على الشاطىء. وهنا فقط. وبعد أن أصبحت وحدها. بدأت كريستي تتساءل عما عناه بكلمة اقتراح!

٥ ـ حمولة السحب

وأخذت ترقب بفضول، والرجلان يحملان مات لم يسيران بجواره على الشاطئ، وعندما اختفوا داخل البيت، ظلّت ترقب بعض الوقت الى أن أدركت أن أمامها أعمالاً تنتظرها. جميل أن يصبح لديها مياه جارية من جديد، ولكنها تعلّمت درساً قاسياً فالتزمت الاقتصاد وكانت تتخيل خيط الماء ينسكب في كل مرة تملأ فيها إناء من أجل الغسل أو الطهو وكافحت وهي تعمل بالنظر الى الشاطئ، رصداً لأثر من مات. الأرجح أن يمضي زواره لبقية اليوم أن لم يكن أكثر، ولهذا فانه لن يعود اليوم ليتحدث عن اقتراحه. هل سيكرر ذلك العرض السخيف لشراء تجارة الأصداف؟ لم يكن ذلك معقولاً على ضوء ما قاله منذ ذلك العرض. وحتى إن كان يعني أن يتضمن العرض كل شيء، فان ذلك يبدو معقولاً لأن البيت الصغير لا فائدة له فيه، ولأن المفروض أن يقيم في كاليفيا لفترة محدودة فقط. هذا مالم يكن الزورق يستحق ثمناً عالياً. لم تكن قد رأت الزورق بعد. قالت لنفسها بجفاء: لأنك شغلت نفسك بالجدل مع مات. وكنت مفرطة الكبرياء على نحو لم تتمكني معه من سؤاله.

ومر اليوم ثقيلاً، وبدأت تشعر عند الأصيل باكتئاب شديد. وكانت قد قررت بسبب جرح ذراعها، أن تتجنب الاستحمام ليومين. ولكنها فكرت بتفاؤل في أنه قد مر عليه الآن ما يكفي لبرئه. فتطلعت مشتاقة الى المياه وحسبها يزداد سخونة

ولزوجة في قيظ بعد الظهر لم تكن هناك نسمة هواء واحدة، وحتى أشجار النخيل أحنت سعفها في فتور.

استسلمت أخيراً للضجر، وتناولت منشفة كبيرة لترقد عليها، وذهبت تبحث عن بقعة ظليلة على الشاطئ، وجلست لتكتب رسالة الى أهلها. ولكن جهد الكتابة كان شاقاً وبدأ جفناها يثقلان. فتركت ورق الكتابة وبدأت ترسم على الرمال. ولم تذكر بعد ذلك حتى سقط القلم من أصابعها واستسلمت للنوم.

وبرد الهواء، وبدأت السحب تغطي الشمس الغاربة. وحملت الرياح قطرات ضخمة. بسرعة لم تدع مجالاً للتحذير من أن السحب على وشك أن تفرغ حمولتها، وعندما هطل المطر بدا كأنه شلالات غزيرة تمنع رؤية كل شيء. وقبل أن تتحرك كريستي والنعاس لا يزال يراودها، وقبل أن تدرك أنها أفرطت في النوم، كانت قد ابتلت الى جلدها. فجلست تشهق وهي تدفع شعرها بعيداً عن عينيها، وتتلمس في عجلة قلمها وورقتها وتنظر بعينين مذهولتين الى حجب الظلام. كان كل شيء قد اختفى مرة تماماً. وما لبثت أن لفّت نفسها بالمنشفة وأخذت تعدو وهي تتعثر طلباً للمأوى، وتضحك وتشهق وهي تطأ عقبات لا تراها. كانت تبتهل من أجل المطر، وها هي ذي إبتهالاتها تتحقق، بانتقام!

كانت مشبعة بالماء، وكأنها سقطت في البحيرة، ولكن لا تزال تضحك عندما اندفعت الى الداخل وأضاءت المصباح وأشعلت الموقد على نحو شعّ معه بقوة جعلتها تجري مسرعة في طلب الغلاية. إذ كان الموقد ينطفىء أحياناً قبل أن يغلي الماء. وعادت بعد ذلك الى غرفة الجلوس وهي تنوي أن تتخفف من ثيابها المبتلة. وهنا فقط لاحظت تساقط المطر في الداخل وتكوين مستنقع على الأرض. فنظرت الى السقف وهي لا تزال تقطر، لترى فجوة تحت القش. فأطلقت أنيناً مرتفعاً. واكتشفت بفزع أن السقف قد نشأت فيه بدل الثغرة ثغرات، وأيقنت أن الطوفان سيغمر المكان في خلال وقت قصير. هذا اذاً سقف العم نول المتين! بارد عندما تكون الشمس ساخنة على نحو لا يحتمل ولكنه لم يذكر شيئاً عن تحوله الى

غربال عندما يسقط المطر. مالبثت أن ذهبت تبحث عن آنية. وبينما كانت تقف على مقعد تحاول أن تضع الآنية فوق الصوان لتكون في مهبط المطر من تغرتين بالسقف جاء مات، وبنظرة واحدة الى المشهد قال بصرامة:

«هيا. اخرجي. انك تضيعين وقتك».

اهتز المقعد بشدة وهي تستدير:

«مات... لقد أفزعتني!»

«آسف. لقد ناديتك ولكن لا بدّ أنك لم تسمعي. أين كنت من قبل؟»

«في الخارج. ان المطر يغرق المكان».

فقال وهو يثبت المقعد ريثما تنزل:

«هذا ما أراه. ماذا حدث لك؟ هل سقطت في مكان ما؟»

«كلا. لقد غلبني النوم على الشاطىء و... لا تضحك!»

«لم أكن أنوي أن أضحك. من الواضح أنك أوقظت بشكل وقح».

بدا السرور في عينيها، والتفتت بعيداً عندما أدركت فجأة أن ملابسها المبللة قد التصقت بجسمها:

«أرجو معذرتك. لابدّ أن أغيّر ملابسي. وأنت نفسك تقطر ماء».

فتطلّع الى معطفه الواقي من المطر وقال وهو يهز كتفيه:

«لا أظن أن هذا يهم كثيراً».

تنسمت الهواء وتوجهت الى المنفذ المستور في التقسيم القائم، وهي تأمل ألا تكون غرفة النوم قد تحولت الى مستنقع بدورها. ومالبثت أن تنفست الصعداء. ومع ذلك ظل الهواء مرطباً، وظلت تشعر بأن جسمها متدي رغم أنها غيرت ملابسها. ودخلت غرفة الطعام لتجدها فارغة. كانت خيبة الأمل حادة على نحو مفاجيء.

« مات؟»

وتطلعت الى ظلمة الشرفة بدون أن ترى له أثراً. لماذا لم ينتظر؟

ولكنه جاء من المطبخ قائلاً:

«لا أزال هنا. ذهبت لأطفىء نار الموقد. هل لديك معطف من المشمع الواقي؟»

«كلا. لماذا اطفأت الموقد؟ لقد أشعلته لتوي».

«لن تحتاجي اليه. ألم تأت معك بمعطف واق من المطر من أي نوع؟»

«مجرد معطف من البوبلين واق من المطر. لم أكن أظن أنني سأحتاج الى شيء أثقل».

«لم تكوني تظنين! حسناً. أنهي وارتديه. سيكون أفضل من لا شيء. أظن أن لديّ معطفاً إضافياً من المشمع الواقي في مكان ما. ويمكنك أن تأخذيه».

حدقت فيه قائلة:

«نعم، ولكن... انني لا أنوي الخروج الليلة مرة أخرى وأنا أرتدي هذا».

«أعتقد أنك ستضطرين الى ذلك أيتها الصغيرة. لا يمكنك أن تبقي هنا في هذه...»

«ليس لدي خيار مع ذلك. فاذا كنت تفكر في اصطحابي الى الفندق الليلة فدعك من هذا. إنه للطف منك أن تعنى بأمري. ولكن لا يمكنني أن أعرك أنت وقاربك الى الخارج في هذا الجو يا مات».

«لست أنوي أن أركب الزورق. ولكنني سآخذك معي لتجفي وتتناولي وجبة محترمة. وستبقين معي حتى يجف هذا... هذا الكوخ ويصبح قابلاً للسكن من جديد».

بدرت منها لفتة حيرة. وهي ترقب تعبيرات وجهه بحثاً عن أثر لتهكم. لا يمكن أن يكون جاداً. إنه لا يعني أن يطلب منها البقاء معه حتى يتوقف المطر أو يتمّ إصلاح سقف الشقة. قد يستغرق الأمر أياماً. لابدّ أنها اخطأت فهمه.

«هل يستحق الأمر ذلك؟ أعني. قد يستغرق احكام هذا الكوخ دهراً. وسأضطر الى تركه. هل هذا ما أردت أن تحدثني بشأنه؟»

«نعم ولكن ليس في الوقت الحاضر على ما أعتقد».

«أوه. هل هذه دعوة رسمية الى العشاء الليلة؟»

«كلا. إنها ليست رسمية. كما أنها ليست دعوة»

«وهي ليست... الاقتراح؟»

قالت ذلك بصوت متسائل ضعيف مفعم بالريبة، فتصلّب فمه قليلاً ثم استعاد هدوءه:

«كلا. انه أمر»

نظرت بثبات في عينيه الرماديتين كالفولاذ وهما لا تهتزان. في الوقت الذي تابع فيه قائلاً بدون أن تتغيّر تعبيراته:

«لن تجادل هذه المرة يا كريستي. أحضري هذا الرداء الواقي من المطر وما قد تحتاجينه من أشياء أخرى لقضاء الليل»

كان في سلوكه ما جعلها تحترس، وتمتثل. فجمعت حاجياتها وخرجت معه. ولم يتحدث أحد منهما بكلمة حتى وصلا الى الكوخ الأخضر. ولم تلاحظ كريستي أن المطر قد توقف الى أن لفت مات نظرها الى هذه الحقيقة وهو يفتح لها الباب لتدخل. فأومأت برأسها وهي تدرك الآن توتر أعصابها.

وكان مات نفسه هادئاً وعملياً، وقد أوضح تماماً أنه لابدّ لها أن تكون ذات فائدة. فأعدّت المائدة وأطاعت تعليماته السريعة في اعداد ماثبت أنه وجبة طيبة جداً. وعندما لم يظهر ميلاً لاحتساء القهوة على فترة طويلة، قنعت بالمضي قدماً فيما أشار به عليها. وفيما اختفى لأداء بعض المهام رفعت الأطباق وانتظرت عودته. ولكن أفكارها لم تكن هادئة وهي تجلس في غرفة الطعام تتصفّح مجلة استرالية كانت على المائدة. تملّكها فضول قوي عن حياة مات ديتهام، مفعم بأسئلة كان لابدّ أن تبقى الآن بلا إجابة. فحتى الآن لم يكن قد تطوّع إلاّ بمعلومات قليلة عن نفسه، ولم يكن فيما يحيط به ما ينبيء عن مفاتيح شخصيته. لا صور ولا علائم اهتمامات أو هوايات، ولا حتى ما يستدل به على موطنه. كم بقي له هنا؟ وكم سيبقى؟ ومن الغريب أنها لم تستطع أن تتخيلّه في إطار آخر

مع حشد من الناس. أفيكون اذاً فتى وحيداً على نفس ما يبدو عليه؟ ولماذا؟

وقف مات على الباب قائلاً:

«سأريك البيت الآن»

كان وراء المطبخ حمام صغير أزرق البلاط تواجهه غرفة صغيرة بسرير ذي طابقين مثبت في الجدار وصوان طويل مطلي باللون الأبيض وخزانة أدراج. وقال وهو يشير الى الصوان:

«ستجدين كل شيء هنا. وهناك ملاءتان اضافيتان فوق السرير العلوي»

تطلعت حولها قائلة:

«أهاهنا سأنام؟»

«انني أعترف بأنه لا يشبه فندق والدورف استوريا، ولكنه خير من فراش عمله»

«نعم. سأدع هذه العبارة تمر»

ودخلت الغرفة، ونظرت الى السرير ثم التفتت اليه.

«وماذا عنك؟»

«أنا؟»

«هذه هي غرفة الضيوف»

«أوه، نعم. يجب ألاّ تشغلي نفسك بأمري. انني لست على درجة من ايثار الغير على نحو أضحي معه بفراشي. ألست عصبية؟»

«وهل يجب أن أكون؟»

«لا أستطيع أن أجد مبرراً لذلك. ولكنني سأكون قريباً بما فيه الكفاية لأسمعك اذا ما هزاك سامي في كابوس»

«سامي؟»

«انه يقيم بجوارك، آمناً في حوضه. هل تذكرين سامي؟»

«ذلك الاخطبوط»

فأومأ برأسه بينما لوت قسمات وجهها وأردفت قائلة:

«لم أسمع عن أخطبوط أليف من قبل. هل أنت موقن من أنه لا يسير أثناء النوم؟»

«موقن تماماً. انه سيعود الى موطنه قريباً في أية حال».

«وكيف ذلك؟»

«وجدته على سلسلة الصخور في يوم ما، وهو نصف ميت، فقررت انقاذه».

«كما قررت إنقاذي الليلة؟»

«كلا. ليس بالضبط. أنت تأتين في تصنيف مختلف».

«آمل ذلك!»

وبذلاقة اللسان هذه استدارت لتختبر ليونة الفراش، وظلت توليه ظهرها عندما انتصبت.

«مات؟»

«نعم».

«هناك أمر واحد لابدّ أن أقوله».

«وما هو هذا الشيء الغامض؟»

قالت وهي تسوي الغطاء القطني بأصابع لم تكن ثابتة تماماً:

«انني أقدر اهتمامك بأمري، وهو أمر لطيف من جانبك، لاسيما بعد. ولكنه مجرد اهتمام، أليس كذلك؟»

«أعتقد ذلك. ماذا يمكن أن تظنيه؟»

«لقد أردت فقط أن أتحقق من أنه لا تساورك أفكار معينة بشأني».

وفي الصمت الذي تلا عبارتها شعرت فجأة بالرعب، واجتاح خديها طوفان من الاحمرار لفرط الحرج. وقبل أن تنتهي الكلمات التي أطلقتها شعرت بأنها أخطأت في الحكم. كان هناك عدم ثقة من جانبها في دوافع مات ديتهام إزاءها، وقد قام عدم الثقة على عدة أمور منذ جاءت الى الجزيرة، ولكنه لم يقم أبداً على الشك

الذي اتهمته به الآن. وبينما كانت تلمس الكلمات لتزيل الأثر السيء الذي أحدثته، قال بهدوء:

«يحسن بك أن تحمرّي خجلاً. والأفضل أن تنظري الى هذا الباب».

فالتفتت بلا رغبة وهي تدرك أن طوفان الاحمرار لم ينحسر بعد عن وجهها، وغمغمت وهو يضع المفتاح في القفل:

«انني آسفة. لم ألحظ ذلك».

قال بجهامة:

«انه الباب الوحيد الذي لا يزال يغلق في كاليندا كلها على الأرجح، راضية؟»

«نعم. ولكن حاول أن تفهم. انها غلطتي. لقد أدركت لتوي كم كنت حمقاء ولكن في أي حال، لا أريدك أن تعتقد أن هناك أفكاراً معينة تساورني أنا. فبعض الرجال ربما فكروا في ذلك، وظنوا أنني أدعوهم لمغازلتي».

قال ببرود:

«لست أنا بعض الرجال هؤلاء. واذا أردت الصراحة فان مظهرك لا يدل على أنك تدركين أية دعوة للمغازلة إلا اذا كانت وقحة صارخة. هذا بغض النظر عن استطاعتك اظهار هذه الدعوة».

زمّت شفتيها قائلة:

«لقد اعتذرت. ألم تقل الكفاية؟»

كانت نبراته مستوية، ولكن ليس بدرجة البرود التي كانت عليها من قبل. قال:

«ليس تماماً. ليس قبل أن أتأكد من ذهاب شكوكك. أعتقد أنك كنت فزعة في داخلك خشية أن تكون لدي خطط معتدية».

«لم أكن فزعة».

«كلا؟»

وهنا بدا كأنه نسي ضيقه السابق، وهو يتفحص تعبيرات استيائها المرتسمة

على وجهها فهتفت في نفاد صبر

«لا أعرف لماذا اهتممت بأمري. كنت بدأت أعتقد أنك غيرت مسلكك نحوي لكنني أرى أنني كنت مخطئة»

وأخرجت حاجياتها من حقيبتها وألقت بها على الفراش الأدنى، ثم استدارت اليه وأردفت قائلة

«لا أزال كما أنا في نظرك. الطفلة المزعجة ذات الاثنتي عشر عاماً ابنة أخ نول العجوز المسكين»

زمّ شفتيه واستدار نصف استدارة الى الباب، وقال:

«هل نظرت مرة الى نفسك في المرآة وأنت في نوبة من نوبات غضبك؟»

«كلا»

«يجب أن تفعلي ذلك. قد يدهشك الأمر»

«أنت يجب أن تكون مؤدباً أكثر عندما تدعو أحداً الى ضيافتك»

«أيجب عليّ ذلك؟»

ثم تغيرت تعبيرات وجهه فجأة وقال:

«والآن أصغ اليّ أيتها الشابة. كنت أظن أنني أوضحت الأمور بصدد مسألة الدعوة. انك محقة تماماً فيما قلته عن عدم تغييرّ مسلكي ازاءك. فأنت لا تزالين كومة صغيرة عنيدة تزيد الأمور خطراً. ولكنني اكتشفت للأسف أنني لا أزال ذا ضمير. كذلك فان غرائز الحماية لدي ليست كما كنت آمل»

«كلا. انك تنفذ أخطبوطات وحشية تتلوى وتتحدث عنها أكثر من ... من...»

ضحك فجأة وهز رأسه قائلاً:

«أكثر مما أتحدث عنك؛ أعتقد أنه يحسن بك أن تديري المفتاح الآن وتضعيه في مكانه التقليدي»

قالت بمرارة:

«تحت الوسادة؟»

«أو حول عنقك؟»

«كلا، شكراً»

هز كتفيه قائلاً:

«نوماً هنيئاً. طابت ليلتك يا كريستي»

ردت التحية بغمغمة وحدقت في الباب بعد أن أغلقه. واتجهت بعد لحظة الى المرآة الوحيدة القائمة في الغرفة. مرآة ثديية في اطار خشبي فأنزلتها ووضعتها فوق خزانة الأدراج، بحيث استطاعت أن ترى فيها نفسها على نحو أفضل من الخصر الى أعلى. صحيح أن الناس لا يفكرون في أن ينظروا الى أنفسهم عندما يكونون في حالة غضب أو ضيق. ولكن هل هي حقاً تبدو بالغة الطفولة؟ نعم يجب أن تعترف بذلك. ثم إن المناخ الجديد والعيش في الجزيرة قد تركا أثراً على مظهرها الشخصي. لقد اكتسبت السمرة الرائعة التي أرادتها، سمرة في مثل ذهب الغسق. لون بني وردي في خديها لم تكن تحصل عليه ولو بقضاء أسبوع في أسبانيا. وشعرها ينسدل الآن على سجيته. وقد أدركت منذ أيامها الأولى في الجزيرة انه لا مكان للأظافر الطويلة المطلية. انها تبدو موفورة الصحة، ولكن ألا تبدو مع كل هذا الأثر الجديد شركية النزعة. الى جانب عبوس ينم عن كرامة غاضبة. انها الآن تدرك ما عناه مات دينهام.

التفتت الى مظهرها في اليوم التالي واشتغلت به على نحو لم تفعله منذ قطيعتها مع ستيفن. فأضافت ماكياجاً خفيفاً للعين، وطلاء للشفاه لم يكن على نفس الدرجة من الجفاف. وسوّت شعرها وحبكته واستردت بذلك مظهرها القديم كفتاة عاملة. ولكن كان يمكن أن توفر على نفسها هذا الجهد لأن مات لم يلحظ شيئاً بل تساءل عندما اقتصرت على تناول الثمار وبعض الشطائر والقهوة:

«أهذا كل ما تأكلين؟»

«انني لا أهتم كثيراً بالسمك. لاسيما اذا كان من نوع لم أسمع عنه من قبل»

وابتسم ابتسامة عريضة وقال:

«لن تصبحي من سكان الجزر حقيقة إلاّ اذا اصطدت إفطارك وطهوته بنفسك».
«ولكن هذا لا يهم مادمت لن أصبح من سكان الجزر حقيقة. أليس كذلك؟»
«أتتوقين الى ذلك حقاً؟»

نظرت اليه بحدة وقالت:

«ليست هذه هي المسألة بالضبط بل مسألة أن أكون حرة في البقاء وأصبح واحدة من سكان الجزر حقيقة اذا أردت ذلك».
«وهذا يعني أنني الغول الذي يهدد بطردك من جنتك؟»
«ألست كذلك؟»

الأمر الآن صريح بينهما، وهنا شعرت بتوتر، وقد أنبأتها غريزتها بأن هناك تغيراً خفياً في سلوكه. وبدا وكأن التلميحات القديمة القائمة على الكراهية وعدم الثقة قد ولّت. هذا اذا كانت قد قامت أصلاً. ربما كانت، في غضبها الدفاعي عن نفسها، قد تخيلتها أو بالغت في تصورها. وربما كان مات من ذلك الطراز الذي لا يملك إلاّ أن يكون خشناً مع الأغراب. ولكن متى عرفته وجدته لطيفاً حقاً. وهذا هو أحياناً أفضل طراز من الناس يصادفه المرء، لأنهم لا يغرونك في البداية بتصرفات ساحرة تجعلك تثق بهم ثم يخيب أملك بعد ذلك. وربما كان صحيحاً هذا المثل اللطيف المحتشم الذي كان أثيراً عند جدتها: كما تدين تدان؛ فاذا لم تكن قد ثارت غضباً في وجه مات منذ البداية، وحاولت أن تكون معقولة ومتفهمة. لربما كان ردّ فعله مختلفاً. ولكن ألا يعني هذا أن تتصرف على غير صادق مشاعرها؟

كان يرقب أثر خواطرها على وجهها البيضاوي، ثم قال بهدوء:

«أعتقد أنك عثرت على جوابك».

أومأت برأسها، ثم استيقظت فيها روح الدعابة فجأة فقالت:

«أعتقد أن الغول ما كان ليتركني أنام والمطر ينهمر عليّ».

ابتسم ابتسامة خفيفة قائلاً:

«الطبيعة البشرية تقتضي قدراً من الفهم. أليس كذلك؟»

أومأت مرة أخرى وهي تنتهي من شرب قهوتها، ثم تطلعت اليه قائلة:

«وماذا عن الاقتراح الذي ذكرته؟»

قال وهو ينهض:

«نعم، سنأتي الى ذلك حالاً. لقد رأيت أن نلقي نظرة على زورق عمك أولاً، ونرى رأيك فيه».

تسلّل اليها السرور فأضاء عينيها، وكاد يوقفها على قدميها.

«الآن؟»

«ولم لا؟»

كانت ملاحظة أكثر منها سؤالاً. وكانت بداية السلم بينهما.

قال لها إنه قام ببعض العمل في الزورق في الصباح السابق، وان آلته في حالة ممتازة، وكل ما يحتاج اليه الآن هو التزود بالوقود.

واختفى داخل بيت الزورق، بينما جلست كريستي سعيدة على طرف حاجز الرسو مطيعة لتعليماته بالانتظار هناك. وعندما سمعت صوت محرك الزورق قفزت وهي تشهق لمرآه ينزلق ظاهراً. كان جميلاً، يتألق ببياضه، وكان أكبر مما توقعت. ولكن كانت هناك مفاجأة أخرى تنتظرها عندما جاء مات بالزورق الى جانبها وساعدها على ركوبه. كان في قاعه قاعدة زجاجية تمكن من رؤية سحر أعماق البحار. قالت بصراحة:

«لم أكن أتوقع شيئاً بهذا الجمال. بل كنت أتوقع على قدر معرفتي بعمي نول شيئاً التصقت أجزاؤه بالقار، وحسن الحظ».

«هكذا يتحدث البحار الغر قليل الخبرة. لقد كان هذا الزورق مفخرة عمك وفرحة قلبه».

واتجه بالزورق عبر البحيرة، والزبد الأبيض يشق جبلاً على صفحة حريرية زمردية. وأردف قائلاً:

«الآن تفهمين لماذا حجبتك عنه. خفت أن فن الابحار كان شيئاً مفتقداً في تعليمك، ولم يكن بوسعي أن أخاطر بحادثة».

«لي أو للزورق؟»

«كلاكما».

«هل سنذهب به الى البحر. أعني عرض البحر؟»

نظر اليها باشفاق قائلاً:

«ليس هذا بزورق نزهة. ولكن لابد أن تعرفي البحر جيداً، كما تعرفين الزورق».

«وهل تعلمني؟»

نظر الى جسمها الرقيق وهي تجثو في وسط الزورق، وأومأ قائلاً:

«على أساس ألا تخرجي به وحدك».

«ولا حتى في البحيرة؟»

«ولا حتى في البحيرة. وسأريك الآن لماذا».

ومضى بالزورق الى أن هدأ سيره على مسافة قصيرة من الفتحة في سلسلة الصخور:

«أنظري الى الخارج».

«أستطيع أن أرى من خلال القاع. عناقيد كبيرة من الشعب المرجانية تمتد الى السطح. الآن أعرف ما تعني».

«والآن يحسن أن تأتي الى هنا وتتلقي درسك الأول».

لو قنعت أن تكون حرة التصرف في ملكيتها الجديدة لأصيبت الآن بخيبة أمل. فلم يسمح لها إلا بأن تراقب وتطرح الأسئلة. ومع ذلك، وبعد فترة قصيرة خرج مات بالزورق سيلتون الى عرض البحر وطاف به حول الجزيرة، كانت قد بدأت تتوقع وتبرق عيناها بالغبطة، وهي تنزل الى الشاطئ، وتنظر بحب الى الزورق. زورقها.

وهمت بأن تقول بحزم: لن أبيعه أبداً. ولكنها التزمت الصمت، خشية أن

تحطم القبول الهش الذي ظهر عليه نحوها. ولذلك قنعت بأن تتبع قيادته. وبعد الغداء، بدأ العمل في اصلاح سقف القش. ولكن المطر سقط من جديد وهو في منتصف مهمته. فاضطرت الى قضاء ليلة أخرى في الكوخ الأخضر. وأحضرت معها في تلك الليلة قوقعة كبيرة وقضت نحو ساعة في ملئها بالطحالب وبطيق من نبات السرخس البري وأوراق ذات رؤوس مزهرة. وكانت فخورة بها، ولكن مات، فيما عدا أنه أبعد غصناً كان يمس طرف المائدة، لم يعلق، فلم تدرك هل لاحظ ما قامت به بسرور، أو بامتعاض، أو بغير اهتمام.

وكان تقصوها إزاءه يزداد بدون شبع. فرغم أنه كان قد استقى منها قدراً كبيراً من المعلومات عن وطنها وأسرتها والوظائف الأربع التي تقلدتها منذ تخرجت من المدرسة، فانه لم يفصح إلا قليلاً جداً عن نفسه، ومنعها مزيج من الحياء والشك عن توجيه أسئلة شخصية إليه.

وأشرق اليوم التالي حاراً جافاً. واشتغل مات بإصلاح السقف من جديد، بينما عملت هي عاملة له. وقال لها أن بوسعها أن تبدأ ترتيب البيت من الداخل، الأمر الذي كان يعني أنها ستنتقل اليه من جديد، وماليث مات أن أعلن أنه سيتركها ويعود الى عمله.

«نعم بالطبع».

وبينما كانت تحدث نفسها بألا تتصرف كطفلة حاولت أن تبعد خيبة الأمل التي أحست بها عندما أدركت أنه لن تكون هناك نزهة بالزورق بعد الظهر، وانصرفت بعزم الى ترتيب البيت. ولكنها لم تكن قد مضت في عملها طويلاً عندما جاء اللنش، ونزلت منه فتاة ترتدي ثوباً أبيض، عرفتها على الفور، ومضت الى الكوخ الأخضر.

وكان شعورها الأول هو أن تلقي بثيابها التي ترتديها وترتدي أحدث مالديها، وتلجأ الى كل أنواع الماكياج في حقيبتها الصغيرة، وتخرج بأناقتها في مشية عرضية متمهلة على الشاطئ. ظهرت ميلاني الآن وهي ترتدي لباس بحر

قرمزي اللون، لم يترك للخيال إلا شيئاً ضئيلاً من جسمها الرائع، مبرزاً جلدها الأسمر المثير. أما مات فكان في لباس السباحة القصير يحمل أمتعة وبوصات للغوص، وكان من الواضح أن عمله لم تعد له الأهمية الملحة.

وبعد لحظة التأمل قررت كريستي ألا تعبأ بتغيير ملابسها. وقالت لنفسها بجفاء: إنه ليس لديها معدات تضارع ما تملكه ميلاني في الوقت الحاضر. فأخذت تمشي الهوينى على الشاطىء. وكان المد منخفضاً، يكشف عن ضفة رملية ممتدة بضعة أمتار في البحيرة. فطوت طرفي بنطلونها الجينز، واتجهت اليها، متغافلة عن الشخصين اللذين كانا يسبحان على مسافة ما. وكان ثمة أثر في الرمال المبتلة، كأنما لمخلوق صغير اختفى فجأة. فأخذت تتبع الآثار وهي تجثو على يديها وركبتيها، وتنكب على الأرض. ثم جلست وهي تدفع خصلة من الشعر بعيداً عن وجهها تحدق فيما حفرته. كانت الحفرتان تمتلئان الآن بالماء وتغيبان.

«ماذا تفعلين؟»

ألقت نظرة خاطفة على ظل ميلاني الذي أطلّ عليها وعادت تعيث في كومة الرمل.

«أبحث عن أنواع».

خلعت الفتاة قناعها وتفرست في الجسم الصغير قائلة:

«ألم تذهب جدة البدعة بعد؟»

«أي بدعة؟»

«اللهو مع الطبيعة».

قالت ميلاني ذلك ونظرت الى مات وابتسمت، ثم أردفت:

«تجدها خارجة لتوها من الشواطىء القديمة؛ انهم دائماً يذهبون الى أحد النقيضين فإما يظلون يرتدون أحدث الأزياء وكأنهم ذاهبون الى أفخم المحال ويتوقفون لتناول شاي بعد الظهر، وإما يصبحون مثل الهيبيز».

قالت كريستي ببرود:

«أنا لست من الهيبيز، انني أعمل».

ثم هتفت:

«لقد عثرت على شيء. أوه، لقد اختفى مرة أخرى».

«دعينا نرى».

قال مات ذلك وهو يجثو على ركبتيه وينحني ليحفر الرمل بمهارة، قائلاً لكريستي:

«أعتقد أنك عثرت على محارة حلزونية».

«وهل هي شيء خاص؟»

«بعضها، من وجهة نظر الهواة الجامعين».

بقيت ساكنة على وعي بقربه، وعلى نحو أغلق ذهنها عن الفتاة الأخرى للحظة. كان أمراً مزعجاً حتى أنها كادت تشعر بالأسف عندما أطلق صيحة انتصار صغيرة وأخرج يديه وهما تقبضان على قوقعة مخروطية. لونها ما بين العاجي والبرتقالي، ولها طرف مستدق وثنيات حلزونية عميقة ذات ظلال.

غمغمت قائلة:

«إنها جميلة. لم أر واحدة من هذا النوع من قبل».

قال وهو يقلب القوقعة بين يديه:

«انك تستحقين الدرجة النهائية أيتها الصغيرة. انها أول محارة من نوعها أراها في هذه المياه».

«أنت أمسكتها».

انتصب في مكانه ملاحظاً أنها لم تحاول أخذ القوقعة من يده:

«هاك. أخشى ألا أستطيع تحديد نوعها فهناك عشرات الأصناف المختلفة من المحارات الحلزونية. بطيئة الأقدام».

«أعتقد أنني سأعيدها في الوقت الراهن».

حدق فيها قائلاً:

«ماذا؟ انها ستتسلّل الى الرمال مرة أخرى وستفقدينها».

«نعم، أعلم ذلك، ولكن...»

وهنا قررت ميلاني أن تتدخل في المناقشة فقالت:

«فيم تتهامسان أنتما الاثنين؟ ما هذه؟ أهي لؤلؤة أو شيء من هذا القبيل؟»

مدّت كريستي يدها وكادت تخطف المحارة قائلة:

«كلا. إنها لا تساوي شيئاً على الاطلاق».

وبدون أن تنتظر رداً آخر مضت في المياه الضحلة وأسقطت فيها المحارة. وأظهرت شفافية المياه جمال ألوانها التي تشبه الطيف، وبدأت المحارة ترتعش وتتموج على الفور، ثم تهبط وعندما اقتربت ميلاني بفضول كانت قد اختفت.

«لقد ذهبت».

قالت كريستي ذلك وهي تلوح بيدها باهمال، ثم خرجت من المياه وسارت على الشاطئ، تتهادى.

ولم تر مات مرة أخرى في ذلك اليوم، وعندما حل الصباح التالي كانت قد نسيت هذه الحادثة تقريباً ولكن مات لم ينس. بل كان هذا أول ما ذكره عندما وجدها تقف على عتبة بيت الزورق، تنظر اليه باكتئاب.

«لا عليك من هذا. لقد بدأت أدرك لماذا تخلّيت عن تجارة الأصداف مستسلمة هكذا».

تظاهرت بعدم الأكتراث قائلة:

«تخلّيت عنها لأنك طلبت مني ذلك، بل أمرتني به. خوفاً من أن أخذ بضعة أصداف تقلب ميزان الطبيعة على سلسلة صخورك الثمينة».

قال وهو يسند يده على جدار بيت الزورق ويشملها بنظرة دعابة:

«هل أنت متأكدة من أنّ هذا هو السبب الوحيد؟ هل أنت متأكدة من أنك لم تكتشفي أنه عمل يتسم بالقذارة».

تنهّدت وتطلعت اليه قائلة:

«حسناً انني سريعة الغثيان. آوه يا مات».

وهنا بدأت تضحك وهي تقول:

«لقد كان الأمر فظيعاً في ذلك الوقت عندما طلبت من الغلامين أن يغطسا فجاءآني بحمل من هذه الأشياء، وسكانها لا تزال تتلوى داخل الأصداف، ولم أستطع أن أواجه محاولة اخراجها أو غليها أو ما إلى ذلك لا بأس، هيّا، اضحك، إن الرجال مفرطو القسوة في مثل هذه الأمور ولكن من أين لك أن تعلم أن الأسماك الصدفية لا تتألم؟»

«قلب رقيق وقدم رقيقة».

«حسناً قال لي الغلامان ألاّ ألمسها حتى يعودا، وهما لم يعودا لأنك...»

«صرفتهما. أذكر ذلك. هل تودين الذهاب لصنع قهوة الصباح؟»

«نعم».

ومشت تساير خطوه، وهو يقول:

«تلك الأصداف التي حذرك منها الغلامان كانت قواقع مخروطية في الأغلب».

«أهي سامة؟»

«انها مميتة، ان لدغتها يمكن أن تقتل!»

وكان أول شيء لاحظته عندما دخلت غرفة الجلوس هو الاناء الكبير الناصع البياض الذي كان يحتوي على النباتات الخضراء. ولم يكن ثمة أثر لتوليفتها وتحويراتها من الزهور. فتوقفت كأنما تلقت طعنة استياء، وهتفت في ارتياب:

«أين صدفتي؟»

«ماذا؟ أوه... هذه... لا بد أنها هنا في مكان ما».

«يحسن أن تكون موجودة».

ومضت الى المطبخ وهي تلقي نظرة شاملة بحثاً عن أي دليل آخر على لمسات ميلاني النسائية. واختفى مات في المعمل بينما تولّت هي صنع القهوة.

وأفكارها لا تزال مسودة بصور تخيلتها عن ميلاني. أنها مغرمة بنات. و
استعادت ما قاله توني عنها من أنها آخر غزواته. كم كانت له من غ
الغزوات؟ لم يكن خاطراً محبباً فنفضته عنها وهي تحدث جلبة بالفناجي
والأطباق. وعندما صبت القهوة، ذهبت الى الباب ونادت:

«القهوة معدة».

فتوقف صوت الآلة الكاتبة التي كان يعمل عليها وقال، قبل أن يستأ
العمل:

«أحضريها هنا يا كريستي».

فتحت الباب بكتفها وهي تمسك بالفنجانين. ودخلت الغرفة التي تقع بج
المنزل، ويستخدمها مات كمكتب. ووضعت فنجانه في متناول يده، وقا
وهي تنظر من فوق كتفه:

«ان شرائط الماكينة قد ضعفت».

«وكذلك كتابتي».

«وماذا تفعل؟»

«أحاول أن أجدد مذكراتي. ولكن يبدو أنني كنت مشغولاً في الأيام الأخيرة

«آه. أستطيع انجازها اذا أحببت».

قال وهو يمد يده متحسساً الى فنجانه:

«أنت؟ وكم أصبعاً تستخدمين؟»

قالت باستياء:

«انني مدربة على الكتابة بطريقة اللمس. قلت لك انني كنت بعمل السكرتا
في العام الماضي، وانني أكرهه».

وجلست على طرف المائدة وحدقت في فنجانها وهي تستعيد ذكريات
وظيفة لها قائلة:

«كان مكتباً مفزعاً. كان في الصيف كبيوت النباتات الزجاجية، ولم يكن

وسعك أن تتنفس فيه. وفي الشتاء، كانت الدفئة لا تعمل أبداً على نحو ملائم فلما يبدو فكان الجو يزداد برودة».

«اذا كانت لا تريدين مهاماً كتابية في الحقيقة حتى لا تعود اليك الذكريات، أليس كذلك؟»

«أوه، إن الوضع هنا مختلف. أحب أن أقوم لك بهذا العمل».

«في هذه الحالة افعلي فوراً».

قال ذلك وهو يشير الى كومة من الورق المخطوط

«ها هنا عمل أسبوع بأكمله. سأتركه لك».

وتذكرت وهي تعكف على العمل أنه تركه لها على الفور، وعلى نحو قاطع، ومرت عليها ساعتان قبل أن يعاوده الظهور. وقال وهو ينظر الى كومة الاوراق الصغيرة المطبوعة، والى سائر المذكرات التي لم تكن قد قلت كثيراً

«ألم تفرغي بعد؟»

«قلت أن هناك عمل اسبوع».

«طارية تستخدم اصبعين فقط وليس لكاتبة مدربة تدريباً قائماً على طريقة اللمس».

لم تقل شيئاً بينما تطلع هو الى الوجه الصغير المصمم الذي كان يحاول أن يبقى محصناً إزاء الطعم الذي ألقاه. وما لبث أن قال بطريقة عرضية:

«وجدت هذه فوق سلسلة الصخور، وفكرت في أنك ربما تحبينها».

كانت صدفة من نوع الترايتون، ذلك النوع الضخم الذي يشبه النفير والتي اشتهر بجماله وأهميته في معارف الجزيرة. وكان مات قد نظفها وجففها وجلا لونها المرجاني من الداخل، فكشف جمالها الكامل. وقال لها وهي تقلّبها بين يديها:

«إنها ليست كاملة. ان طرفها مكسور، معظمها كذلك».

«إنها رائعة!»

ودفعها حافز مفاجئ، فأطاعته بدون أن تفكر في حكمته. فنهضت وقبلته. وجاءت القبلة، التي مست طرف فمه، على غير توقع منه، فتراجع خطوات لا ارادية الى الوراء. وقالت بحماس:

«لقد كانت هناك واحدة فقط من هذه المجموعة التي تركها عمي. ولم تكن بهذا الحجم. أما هذه فلا بد أنها اثنتا عشرة بوصة على الأقل».

وتوقفت اذ بدأت تدرك ما فعلته، وتدرك ما يفعله. فلمحت يده تمسح فمه، وشاهدت تعبيراً في عينيه جعلها تنسى المحارة. هتفت قائلة:

«ماذا تفعل؟»

اختفت لمحة التعبير الغريبة، وقال، وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

«ردة فعل آلي. أزيل الدليل».

هبطت من فرحتها الى شعور بالتضرر لم تخطئه، واعترضت قائلة:

«أي دليل؟ انني لا أضع أحمر شفاه، على الأقل اليوم».

حدق فيها للحظة وهو يرى الرعشة التي لم تستطع شفتاها المرسومتان أن تسيطرا عليها، وتصلّب فمه.

«أنت تعلمين يا كريستي أنني لست عمك نول، وأعتقد أن الوقت قد حان لتقرري ماذا تريدين».

«ماذا تعني؟»

«اذا أردت أن تلعبي دور الطفلة الصغيرة فيجب أن تتوقعي معاملتك على هذا النحو ولكن لا تتوقعي من جميع الرجال أن يضطلعوا معك بدور عمك».

«ولكنني لا أتوقع ذلك... أوه... بحق السماء...»

وأشاحت عنه وهي على وشك أن تطلق دموعاً طفولية لا شك سيزدريها وقبضت على حقيبة الشاطئ، التي كانت قد جاءت بها ومضت الى الباب قائلة:

«انني لن أتهمك أبداً يا مات دينهام».

وارتجفت بعنف وهي تفتح الباب وتمر منه. قال:

«يحسن بك ألا تحاولي».

والتفتت الى الخلف غصباً عنها. كان يدفع القوقعة المنسية وكومة المذكرات المطبوعة باهمال الى نهاية المكتب. وبدون أن ينظر اليها جلس وأخرج ورقة بيضاء. فصفقت الباب بغضب ومضت في طريق عودتها على الشاطئ الصامت.

٦ ـ جزيرة القمر

قضت ثماني عشرة ساعة في وحدة لم تصحبها فيها إلا خواطر عنيفة عن الرجال المتغطرسين الساخرين، الذين يبعثون على الضيق والغضب ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم وسلوكهم، وبخاصة واحد منهم كان أسوأهم. ورغم هذه الساعات الطوال فانها لم تكتشف لماذا لم يؤد قسمها بأن تتجاهل مات دينهام الى أي عزاء وتسرية لها. بل كان مما يربك أكثر أن تراه في الصباح يلوّح لها وكأن شيئاً لم يحدث.

كان يبدو في سمرة برونزية، أشبه بالقرصان وهو يرتدي قميصاً قرمزياً على لباس سباحة أبيض، وقد تدلى في يده قناع الغطس. وقف يرقبها على الشاطىء، وهي تستحم. فلوحت له باقتضاب واستأنفت ضربات ذراعيها. وعندما نظرت مرة أخرى الى الشاطىء، كان قد اختفى. ولم تكد تلمح القميص القرمزي منشوراً على شجرة حتى وجدت رأسه يشق سطح الماء بجوارها.

«هل فقدت اهتمامك بركوب الزورق؟»

«كلا».

«أتعبسين؟»

«كلا».

ومضت تضرب بذراعيها الماء الى الشاطىء، وقد صممت على أن لا تدعه

يستفزها الى الغضب أو العفو ولكنه شق طريقه عبر الموجات الحديدية كالبرق، وسبقها بضربات قوية. ومد يده وأخذ بذراعها ليساعدها على الانتصاب.

«أعتقد أنك تعبسين».

نفضت ذراعها من يده وقالت:

«أعتقد مانشئت. ولكن يمكنك أن تتناسى الاضطلاع بدور العم».

«هكذا اذاً. انتظري لحظة».

وأخذ ذراعها وأدارها اليه لتواجهه، وقال:

«اصغ اليّ أيتها القنفذة الصغيرة الشائكة. ألا تستطيعين أن تتحمل قدراً من الاغاظة؟»

«هل هذا ما تسميه اغاظة؟»

«انه مثل أي شيء آخر. انك قادرة على أن تفعل ذلك أيضاً على نحو عنيف».

«أعتقد أنني أحتاج الى ذلك».

«ولا أحد آخر يحتاج؟»

«هل المفروض أن تكون هذه هي فكرتك عن غصن الزيتون؟»

«أيحتاج اليه الأمر ثانية؟»

أطلقت زفرة متفجرة وحدقت فيه:

«هل تمضي هكذا دائماً وكأن شيئاً لم يحدث؟»

ارتفع حاجباه

«وهل حدث شيء؟»

«أوه، أنت امر ميؤوس منه! انني أسلّم بذلك».

وهزت رأسها في يأس، وأشاحت عنه، فسقطت يده عن ذراعها وقال برقة:

«حسناً. كنت أمل الانتهاء من كتابة هذه المذكرات».

صاحت على نحو متقزز:

«أهذا كل ما تفكر فيه؟ كان يجب أن أعلم! أن لي فوائدي».

استعاد قميصه وألقاه على كتفيه في اهمال وقال:

«لم أنكر ذلك أبداً. هل جربت معدات الغطس التي تركها لك عمك؟»

لم تكن نبرته في نفس الدرجة من الشدة وان ظلت متحفظة.

«كلا. لم أسبح أبداً تحت الماء، وأعلم أنه ليس من المفروض أن يفعل المرء ذلك مالم يكن خبيراً».

«حتى الخبراء قلما يفعلون ذلك وحدهم. ولكنني أعرف بركة عميقة مأمونة على نحو يتيح لك أن تبدأي منها».

وانتظر عند أول درجات الشرفة لتتقدمه، وقال:

«كيف حال عمود السقف؟»

«يبدو أنه على ما يرام. ولكن المطر لم يهطل إلاّ مرة واحدة منذ أصلحته. تفقده بنفسك».

وتركته يرصد آثار أي بلل، بينما ذهبت لتجفف شعرها المبتل. وعندما عادت الى غرفة الجلوس كان يجلس في مقعد ذي مسندين. وتساءل وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

«ماذا حدث لثوبك الطويل؟»

«انه موجود في مكان ما. وقد قررت ألاّ أرتديه».

وحزمت سترة الشاطيء باحكام حول خصرها النحيل، ووضعت يديها في جيبيها قائلة:

«أتريد بعض القهوة؟»

استرخى في مقعده، وبدا على سجيته بشكل غير مهذب، وقال وهو يحدق فيها:

«اذا كنت تعدينها، نعم، أرجوك».

فذهبت تصنعها بدون كلمة، وهي تدرك أن غريزتها قد انقسمت إزاءه. نصفها كان لا يزال متعباً ونافراً، وان لم يكن مجروحاً قليلاً، ونصفها الآخر، نصفها

الأليف، كان مستعداً لمد الجسور معه. وتنهدت لعجزها عن الظهور بمظهر عدم الاكتراث، ذلك الذي تحسنه فتيات مثل ميلاني هايتون، ومضت بصينية القهوة الى غرفة الطعام. يبدو أن السلام قد حلّ مرة أخرى.

وكانت هذه بداية أيام من أكثر ما مر عليها في حياتها فتوراً. كانت موقنة من أنها لا تتخيل أن مات قد أصبح في مسلكه أكثر رقة. لقد كان بالقطع أكثر صبراً، لاسيما عندما قامت بأول غطسة لها تحت سطح البحيرة وقاومت شعور الفزع الذي اندفع اليها بلا تحكم لاحساسها بالعزلة التامة في عنصر غريب صامت. ومرت عليها لحظات مربكة عندما امتلأ قناعها بالماء، وفقدت القطعة المثبتة على فمها وهي تحاول تذكر عشرات التعليمات التي ساقها اليها، فدفعها الى السطح وهي تشهق في طلب الهواء. وعندما تعذّرت عليها رؤيته تعثرت وأثارت الكثير مما حولها وفقدت اتجاهها تحت الماء. وعندما ظهرت السمكة البغبائية أمام قناعها مكبرة عن أبعادها الحقيقية فازعها أكثر مما فاجأت هي السمكة الفضولية.

ولكن بعد أن مرت بهذه المرحلة المبدئية وقعت في هوى الحديقة البحرية السحرية. كانت الألوان كلها تتلاعب خلال المياه البللورية، تتقوس وتتشابك في تصميمات معقدة ساحرة لا تأمل يد بشرية في تقليدها. وقد أصيبت بخيبة أمل مريرة عندما فرغت اسطوانات الغطس من الهواء، وقال لها مات انه لن تكون هناك استطلاعات طويلة أخرى تحت سطح الماء حتى يتم إعادة شحنها. وكان معنى هذا الانتظار الى رحلتها القادمة الى ناموتوا، خلال يومين على الأرجح كما قال مات. وفي فترة الانتظار حدث مزيد الاكتشافات وأضيف الى مجموعتها عدد متزايد من الأصداف الغريبة، وجمعت من مات قدراً كبيراً من المعلومات، وان كان قليل منها فقط يخص شخصه.

الى أن جاء اليوم الذي صحبته فيه لأول مرة الى الجزيرة الرئيسية، فسألته بفتور:

«أين موطنك يا مات؟ أنت لم تخبرني بذلك من قبل».

«سيدهشك الأمر اذا أخبرتك به».

«أهناك سبب يحملك على عدم اخباري؟»

«لا، على الاطلاق، انه يقع على مسافة عشرة أميال من موطنك».

«من لندن؟»

أومأ برأسه قائلاً:

«ولكنني لم أعد اليه منذ نحو عشرة أعوام».

«لقد ظننت أنك لست انكليزياً».

بدا مسروراً، وقد ضاقت عيناه من وهج البحر، وتساءل:

«وماذا كنت تظنينني؟»

فضحكت وهزت كتفيها قائلة:

«لست أدري. ظننت أنك ربما تكون من استراليا أو نيوزيلندا. ولكن لا توجد لكنة مميزة لك، فلم يكن من السهل أن أعرف».

«عشت في سيدني ثلاثة أعوام، ولكن هذا كان منذ وقت طويل، قبل أن أذهب الى الولايات المتحدة في بعثة مشتركة لاجراء تجريبات حول التلوث البحري».

«طفت بأماكن كثيرة».

أومأ برأسه وعلى شفتيه نصف ابتسامة، وقال:

«كنت سأبقى هناك، ولكنني تلقيت عرضاً بمنصبي الحالي في قسم الأحياء البحرية، وبدا لي كأنه البيئة الطبيعية التي تلائمني أفضل ملاءمة، ولذلك...»

وسكت عن الكلام وهو يرسي الزورق شيثون وساعدها على الخروج، وألقى إحدى العملات النقدية لغلام قزم من الكاناكا يشبه القنفذ كان قد كسب السباق مع زملائه وأمسك بحبل الرسو ثم أخذ بذراعها الى أن عبرا شبكة من الحبال والصناديق من سفينة حين كانت تفرغ شحنتها، وقال عندما بلغا أول

صف أكشاك السوق على رصيف الميناء:

«عندي بضعة أمور لابد أن أنفذها. فهل لنا أن نتقابل في الفندق نحو منتصف النهار لتناول الغداء؟»

«ألن تنسى إعادة ملء الاسطوانات؟»

«سنفعل ذلك بعد الغداء».

وافترقا عندئذ. وبدأت تتجول وهي تتطلع الى الألوان المتعددة للفاكهة والأطعمة البحرية وبالات القطن، وكلها ممتزجة بأطايب غريبة مثل الليان وأدوات المطبخ والكوكاكولا. واسترقتها الكوكاكولا وفتح لها البائع زجاجة وأعطاها زهرة لشعرها. ومضت وهي ترتشف محتويات الزجاجة ودخلت المحل الرئيسي وهي تشعر بسلام مع العالم المشمس. وقال لوتي وهي تدخل:

«لم نرك منذ وقت طويل. كنا نتحدث عنك للتو، ونتساءل ما اذا كان يجب أن نرسل اليك بعثة إنقاذ».

قالت وهي تجلس وكأنها في بيتها:

«ولماذا احتاج الى بعثة إنقاذ؟»

«مجرد خاطر عابر. كيف حالك؟»

«أنا بخير. أين بن؟»

«في البنك. تبدين بخير. لك مني كل تحية وترحيب. كيف حال النزاع؟»

«أي نزاع؟»

«ألا تعلمين أنه سيعقد هذا الأسبوع المؤتمر المحلي للسلام بين الأخية؟»

«قبل واحد وخمسين أسبوعاً من مهرجان فتنة الحرب؟»

«هيا اضحكي. أستطيع أن أتقبل المزاح».

تناولت قلماً من المكتب وبدأت ترسم خطوطاً متداخلة وقالت:

«الحقيقة أنني جئت معه الآن لنتري في اللنش سنتناول طعام الغداء ثم نعيد ملء الزجاجات».

«زجاجات؟»

«اسطوانات الغطس. ان مات يسميها زجاجات».

«الأمر كذلك اذاً. لقد نزلنا بالنزاع الى تحت الماء الآن».

وهنا دخل بن فنظر اليه قائلاً:

«لقد انعزلنا الآن يا بن».

«لم أكن أعتقد من قبل اننا في العملية. مرحباً يا صغيرتي».

وعبث بشعرها، وبدا مسروراً لرؤيتها. وأرسلا في طلب القهوة وهما يواصلان الحديث الودي معها، على نحو شعرت معه بالمتعة الى حد كبير. ومرت الساعة بسرعة، وقال لوني وهي على وشك الانصراف:

«ألم تذهبي بعد الى لونا؟»

«لونا؟ لم أسمع بها من قبل. ما هي؟»

«انها جزيرة، أبعد جزر هذه المجموعة. انهم يسمونها جزيرة القمر ويعتقد الأهالي أن بها سراً. ولكنني أظن أنك محصنة».

«ولماذا هي محرمة؟»

«فولكلور قديم. معظم هذه الجزر تدور حولها قصص قديمة. اطلبي من مات أن يصطحبك الى هناك. ان المسافة لا تستغرق إلا ساعتين أو نحو ذلك، ومن المؤكد أنه يعرف الاسطورة».

ترددت. أرادت أن توجه مزيداً من الأسئلة، ولكن نظرة الى ساعتها أنبأتها بأن مات ينتظر، وقالت:

«أليس هناك روح مخيفة تحتاج الى إرضائها بتضحية بشرية؟»

أفتعل لوني مظهر الغول، وكان على وشك أن يفصل قوله، ولكن بن تدخل قائلاً في جفاف:

«سترسله للتحقق من الأمر فاذا لم يعد فستعرف».

وشدها بعيداً عن الثرثرة خاطر الجزيرة الممنوعة.

«لونا. جزيرة القمر. إنه اسم شاعري. هل ذهبت الى هناك؟»

هكذا قالت لمات وهما مسترخيان يتناولان الشراب بعد الغداء.

«ألقيت عليها نظرة عندما جئت الى هنا أول مرة. ان أفضل وقت لرؤيتها أثناء الليل».

«ولماذا؟»

«فيها مكامن معدنية تجعلها مضيئة. وهي تبدو فضية في ضوء القمر، وكذلك البحر من حولها».

«يبدو الأمر جميلاً».

«انها بركانية ومقفرة، وأعتقد أن فيها جمالاً باهراً وحشياً، حتى لو كان بمجرد التناقض مع الخضرة الوافرة لسائر الجزر».

«أحب أن أزورها».

«ظننت ذلك. وأعتقد أن رفيقيك في التجارة هما اللذان وضعا الفكرة في رأسك».

«قد لا أعود أبداً الى البحار الجنوبية مرة أخرى».

«وهذا معتاد بالاستقراء المنطقي لأفكار المرأة غير المنطقية. أنه سيكون من المؤسف العودة الى الوطن بدون رؤيتها. وماذا اذاً عن فيجي وساموا وهاواي وميكرونيزيا وبولينيزيا؟ إن المجال واسع».

قالت في غير ضيق:

«حسناً. فلتسخر ما شئت. إن المحيط الهادي، لم يعد كبيراً كما كان من قبل».

«وعلام تقيمين هذا الفرض المتهور؟»

«إنه مجرد تشبيه رمزي. ان السفر بطريق الجو قد قلص العالم كله».

ونظر اليها للحظة، ثم قال فجأة:

«لقد حان الوقت أيتها الشابة لتجلسي في زورق صغير في منتصف المحيط الهادي، وتطلعي الى آفاقك. هيا. أعتقد أنني سآخذ بقية اليوم عطلة».

أدركت، رغم أنه لم يقل ذلك، أنه قرر بحافز منه أن يصطحبها لزيارة لونا.

فلزمت صمتاً رزيناً وهو يدفع الحساب ويعود بها الى الشيشون وكان محل الشموع الذي يملك المكبس في الجانب المقابل تقريباً فلم يستغرق اعادة ملء الاسطوانات وقتاً طويلاً. كذلك اشترى مات بعض صفائح الوقود لزورقه ولزورق الشيشون. ثم ساعدها على النزول في الزورق بوجه غامض الملامح. وكان هناك موج عال خفيف ولكنه ليس كافياً لاثارة الشعور بعدم الراحة. ومالبث الشيشون أن اتجه الى عرض البحر بسرعة ست عقدات.

وليعت كريستي في مقدمة الزورق وبدأت تدهن بشرتها بالزيت الواقي من حرارة الشمس، وتشعر بالفتور واسترقت النظر عدة مرات الى مات، الى أن التقت نظرتها الحذرة بوقع نظرته وهي تشملها بهدوء. فتحركت في مجلسها لتغطي بحركتها شعور الارتباك الذي داهمها عندما ضبط نظرتها اليه.

«كم بقي من الوقت؟»

«ربما ساعة أخرى»

«ألم تدر المحرك الاضافي؟»

«ولم العجلة؟»

«لا شيء، كنت فقط أتساءل».

والتفتت بعيداً وهي تمر بأصابعها القلقة على السور النحاسي الصغير.

«اخبرني. لماذا تبدو النساء دائماً نافدات الصبر هكذا؟»

«تعني لماذا يتحدثن دائماً بينما الرجال يريدون أن يتصلوا بالمحيط».

قال بهدوء:

«يجب أن تجربي هذا الاتصال الصامت بنفسك في وقت ما، ليس مع المحيط فحسب بل كذلك مع زملائك من البشر. انها يمكن أن تكون تجربة مجزية».

حملقت في الزرقة الممتدة بلا نهاية، وقالت:

«انني موقنة من ذلك. ولكنه أمر لابد أن يأخذ وقته. وهناك خبرات بالغة التعدد ينتظر المرء أن يكتسبها في حياته».

«هذا نفاد صبر الشباب يا كريستي. وكلما تقدمت بك السن أدركت أن هناك فسحة لكليهما معاً».

التفتت لتنظر اليه، وهي تحس لأول مرة بشبابها بطريقة أقلقتها. وبدا مات للحظة وقد تراجع عن ألفته التي عهدتها ليصبح غريباً، غريباً أكبر سناً بعيداً عنها بفجوة في الفهم وفي السنوات كذلك. ومالبثت أن نهضت قائلة:

«انني ظمآنة. أريد شراباً. هل تريده؟»

وتحركت بحذر، لأن الموج بدأ أثقل مما كان. ونزلت الى القمرة الصغيرة. كانت قد خزنت في الصباح علباً من عصير الفواكه وعلباً من الشراب الوطني. فتناولت كأسين وهي تذكر نفسها بضرورة ألا تملأهما تماماً من أجل تيسير حملهما. وما كادت تقترب من مات بدون أن تتلوث أصابعها حتى انزلقت. فأطلقت صيحة وهي تحاول ابقاء الكأسين مرفوعتين وانقاذ نفسها من السقوط في الوقت نفسه.

«أثبتي!»

امتدت ذراع مات لتمسك خصرها فارتطمت به. وانزلق الشراب وعصير الفاكهة على ذراعيها وهي تجاهد لتحفظ توازنها. قالت في أنين:

«انها تبعثر في المكان كله».

قال وفمه يعلو أذنها:

«لا بد أن تحاولي على نحو أفضل في المرة القادمة».

«نعم».

كانت قد ثبتت الآن. وهي لا تزال تدرك قبضة الذراع حول خصرها، ولمسة جسمه المفتول الشديدة لنعومتها المستسلمة. فانتزعت نفسها وتراجعت.

«هاك كأسك. ما بقي منها».

«نصف كأس! ولماذا الكؤوس؟ ألا تستطيعين الشرب من العلبة؟»

«نعم. لم أفكر».

ورأت أسنانه شديدة البياض وهو يبتسم وبدا لها كأنها تشاهد لأول مرة كل خط وكل سطح وكل صفحة من بشرة وجهه السمراء. وكانت قزحية عينيه ذات زرقة غنية عميقة بها نقط سوداء. وأحد حاجبيه مقوساً أكثر من الآخر، ويده التي تمسك بقايا شرابه قد تركت الآن ما شعرت بأنه الطباعة نارية حول خصرها. ولكن فاق هذا كله قوة كامنة فيها كانت تجاهد نحو معرفة جديدة.

لم تكد تعي عودتها الى القمرة واخراج علبتين جديدتين حتى وجدت نفسها تجلس على المقعد الطويل في القمرة تجرع محتويات العلبة التي كانت تقصد أن تحملها الى مات! ورسم فمها أخيراً علائم نفورها من مرارة الشراب، فأخذت تحملق في العلبة بفزع. لماذا تجلس هنا تستعيد مرة ومرة اللحظات التي مرت بعد انزلاق قدمها؟ لماذا هذه الرعشة التي تسيطر على أطرافها؟ لماذا تحثها هذه الأطراف على حركة محمومة على أن تعود مندفعة الى السطح، حيث..

كتمت هذا الدافع ونهضت تحدق في صورتها في المرآة. كان الوجه الذي يطالعها وجه غريب محمر الخدين متألق العينين. وجه فتاة عميت عيناها البراقتان عن أجوبة هذه الأسئلة. فتاة غمرتها سعادة جديدة وحشية. سعادة لا يحتمل ثقلها الساحق منطق التحليل البارد ولكن..

وعندما بدت الذروة البركانية طويلة ممتدة كجبل من الزجاج الأسود قد حجبت السماء، كانت كريستي لا تزال تحاول أن تتوافق مع احساس يراودها كضرب من الخيال. كان ظل الجبل ممتداً يلقي بظلمته على البحر، ولكن كريستي كانت محصنة ضد أي شعور صوفي ربما غامرها في مثل هذه الظروف. ونسيت تقريباً انبهارها السابق ورغبتها في رؤية جزيرة القمر وكل ما يشغلها تماماً أن تحتفظ بسلوك طبيعي على نحو ملائم، وأن تبدي تجاوباً يتمّ عن اعجال إزاء مات دينهام.

قال وهو يوجه التيشون بحذر بجانب سلسلة من الصخور المسطحة ممتدة داخل الماء:

«لقد تصوّرت أنك ستصابين بخيبة أمل».

قالت بدون أن تنظر اليه:

«أوه. لست كذلك. ولكنها تبدو مقفرة، ولا شيء هناك».

«ان الشاطىء الوحيد في الجانب الآخر، ولكن هذا هو المكان المحتمل الوحيد للرسو، وهو ليس جيداً تماماً أيضاً».

ومرّ بعض الوقت قبل أن يبدو مرتاحاً الى إتمام الرسو، ثم قادها عبر سلسلة الصخور الخشنة وهو يطلب اليها أن تراقب خطوها. واستغرق الأمر نحو نصف ساعة لتشق طريقها عبر الممر الذي كان يشرف على بحر مظلم لا يبدو ودوداً. وعندما اتسع الطريق وأفضى الى الحدارة عريضة تناثرت فيها جلاميد الصخر، شاهدت الشاطىء، وشعرت بخيبة الأمل التي كان يتوقعها مات. فبدلاً من الشقة المرجانية البيضاء التي انست بها كالتيندا، كان هذا الشاطىء خشناً ووعراً بالغ السواد حتى وكأنه مظلم، وكانت تهيمن عليه صخرتان غريبتان طويلتان مروستان عند طرفيها، صاعدتان من البحر في الجانب البعيد من الخليج.

وخطر لكريستي أنهما مثل جسمين عملاقين مشوّهين، كأنما يحرسان جزيرتهما الصامتة. صامتة! هنا ضاق حاجباها وكبحت رعدة ألمت بها. هذا هو الشيء الغريب الذي كانت تترجمه. لقد كانت لونا بالغة الصمت على نحو يثير الأعصاب. فلا طيور تصيح، ولا أوراق تهتز، حتى صوت البحر بدا مكتوماً.

وقال مات، وكأنما أحس برعدتها:

«انها قاحلة تماماً. تذكري اسمها».

«نعم، ولكن ماذا حدث؟ هل كانت في يوم ما مخضرة ومسكونة؟».

«لقد كانت جنة عدن لوصحت الأسطورة».

توقفت وحدّقت في المشهد المقفر بعينين غير مصدقتين وهتفت:

«جنة عدن؟ أبداً! لابدّ أن البحر قد قذف بها في فورة مفزعة، مثل تلك الجزيرة

اليونانية... لا أستطيع أن أتذكر اسمها».

قال وهو يستأنف خطوه البطيء:

«سانتورين».

«ما هي القصة اذاً؟»

«كل الأجناس، مهما كانت معتقداتها أو آرائها، لها نظريتها الخاصة، أو ايمانها الخاص بنشأ الخليقة. وليست البحار الجنوبية باستثناء في هذا الشأن. ولكل مجموعة من الجزر معارفها الخاصة. انهم يؤمنون بكائن كبير خلق الرجل أولاً، ثم المرأة، في العالم الذي خلقه من الفراغ. وكل قبيلة لها روايتها الخاصة التي تعتبرها الرواية الحقيقية. وأهل تاموتوا يعتقدون أن هذا حدث هنا، وأن الرمز أو جعل الأرض تسخو بعطاتها. ولم تكن هناك أمراض أو شرور الى أن أكل تاو ويا من الشجرة المحرمة. وفي غمرة غضبه اقتلع، أو، الشمس من السماء وطردها الى الظلمات. فأصبحت الجزيرة قاحلة. ولن يستعيد الأهالي جنتهم أبداً الى أن يرق، أو، ويرضى».

وحلق في الجسمين الصخريين ومضى يقول:

«وهذان هما الرمز. ان المرء ليكاد يراهما يقرّان، ويتوقفان ليلتفتا الى ما فقداه».

ارتعدت كريستي، فأخذ بذراعها قائلاً:

«هل تريدين التسلّق الى فوهة البركان؟ معظم الزوار يريدون ذلك. فمن هناك تستطيعين رؤية سلسلة الجزر كلها تمتد كقلادة خضراء على عنق البحر».

وتمنت فيما بعد لو كانت اعتذرت. فمات نفسه كان غير مكترث لأنه شاهد المكان من قبل. ولكن ترددها في العودة الى الزورق، يعني قرب انتهاء اليوم، مما جعلها تختار هذا الطريق لاطالة الرحلة. وقد استغرق الصعود ثلاثة أرباع الطريق منها ساعتين. شعرت كريستي بعدها بالانهاك والظمأ. وتوقف مات، وتخلى عن صعود الجزء الأشق من نهاية الطريق، وجلسا على نتوء صلبي، وهما صامتان ينظران الى بحر كأنه رصاص أزرق. وكانت الجزر مرئية، ولكن

ليس بالوضوح الذي يمكن به رؤيته من القمة. هكذا قال مات، وازداد السكون إثارة للأعصاب. فلم تعترض كريستي عندما قرر أنهما ارتاحا بما فيه الكفاية وأن الوقت قد حان للنزول.

وتم النزول على نحو أسرع بكثير من الصعود، ولكن ليس على نحو يكفي لسبق السحب التي كانت تتجه بسرعة الى الغرب طلباً للشمس. وتشقق لون البحر الرصاصي الآن، وظهر القلق في عيني مات وهما يرقبان تجمع العاصفة. وبدأ يستعجل كريستي، ولكنهما ما كادا يصلان الى منتصف الطريق عبر الشاطىء، حتى بدأ المطر يتساقط. ورأت القلق في وجهه فهزت رأسها قائلة:

«لست أخشى أن أبتل. فالأرجح أن تظهر الشمس مرة أخرى قبل أن نعود الى الزورق».

«ليس هذه المرة».

«هل سيكون الأمر شيئاً».

قالت ذلك وهي تصعد الى سلسلة الصخور واقتربت بغريزتها من الجانب الذي يوفر بعض الملاذ. وقبل أن يرد أجابتها عناصر الطبيعة نفسها. فمزقت السماء لمعات البرق على نحو لم تعهده من قبل. وانفجر الرعد بقوة جعلتها تنكمش من الصدمة. وترددت الأصداء في الصخرة تحت قدميها، وانهمر الطوفان. فجلست القرفصاء أمام الصخرة، وقد أعماها البرق وأذهلها الرعد وهي تضع يديها على أذنيها. كانت العواصف الرعدية منذ عهدها المبكر بالطفولة هي رعبها الأوحد. وكانت هذه عاصفة رعدية لم تعرف مثلها قط.

«هيا. تحركي! لا يوجد مأوى هنا».

قال ذلك وهو يمسك بذراعها ليدفعها. وأنّت لقبضته ذراعها، ولكنها لم تشعر بها. وأرغمت نفسها، وهي تحاول أن تنفض عن جسمها شلل الخوف، على التحرك في مهب العاصفة. وبدا الأمر وكأنه استغرق ساعات لاعشرين دقيقة لشق طريقهما الى حيث تركا الزورق. ثم دهمها خوف جديد وهي تتعثر الى مأوى

القمرة. فتطلعت بعينين مذعورتين الى مات قائلة:

«هل سنستطيع العودة؟»

قال وهو يخرج من القمرة ولفحات الريح تدخلها:

«في هذا الجو؟ أجادة أنت؟ اننا مضطرون للبقاء حتى تمر العاصفة».

وبلغتها كلماته الأخيرة خافتة في زئير العاصفة. وامتلكها خوف جعلها تندفع خارج القمرة. فلنفرض أن الأمواج اكتسحته وقذفت به خارج الزورق.

كان قائماً هناك بجسمه الطويل يحجب الضوء الرمادي فأشار اليها في نفاد صبر قائلاً:

«ابقي مستترة بحق السماء».

هل هذا نفس الخوف المكتوم الذي يخالجها؟ لم ينطق به وهو يغلق الكوة ويسقط حزمة معاطف المشمع على المقعد الطويل قائلاً:

«هل عندك دثار أو أي شيء في هذه الحقيبة؟»

هزت رأسها، فتنهد في نفاد صبر قائلاً:

«ولا أنا. وفيما عدا لباسين قصيرين للبحر لم يترك عمك في خزانة خلع الملابس. فعليك أن تكتفي بهاء».

كانت تحاول أن تجفف جسمها بشلة يد صغيرة تشبعت بالماء من شعرها وحده. وعندما تطلعت اليه والى الخرقة قال بصوت أجش:

«كلما عجلت بخلع هذه الملابس المبتلة كان هذا أفضل».

كان قد خلع قميصه، وأخذ يعصره، ثم نشره على خزانة خلع الملابس. فترددت، وقوى تتحارب في داخلها، ومع ذلك وياللغرابة، لم يخالجها أبداً شعور بعدم الثقة. وكان متجاهلاً إياها، يسلم فيا يبدو بأن التعقل سيجعلها تطيع، وهو ينقب داخل الخزانة، فرفعت الحزمة ببطء، وتناولت من بينها معطفاً ضخماً، وتساءلت وهي تنظر الى فسحة الامتداد بين كتفيه العاريتين وتعض شفتها:

«وماذا عنك؟»

قال بدون أن ينظر اليها:

«سأبقى على قيد الحياة!»

وانصرفت عنه أخيراً وخلعت بلوزتها المثقلة بالماء، وكانت بعض ملابسها الداخلية مبتلة، فخلعتها بعزم وارتدت معطف المشمع، وشعرت به بارداً رطباً قليعاً عندما تخلصت من باقي ملابسها، ولكنها استعانت ببودرة تالك كانت قد اشترتها في الصباح لتعطيها ايهاماً بالجفاف. وكان صندلها مبتلا كذلك فطرحته عن قدميها أيضاً والتفتت الى مات. كان ينظر اليها، وقد تقوس فمه في ابتسامة ساخرة:

«أيتها الصغيرة المتواضعة. أود فقط أن تنظري الى نفسك».

قالت باندفاع وهي تشمر أكمام المعطف الضخم حتى ظهرت أصابعها:

«أستطيع أن أتصوّر ذلك. كان العم نول يتجاوز طوله ستة أقدام».

حرّك يده بسرعة وقبض كالكماشة على خصرها، ومعه عدة أمتار من فائض المعطف وقال:

«وكان عرضه نحو ثلاثة أقدام. ابتهجي. فربما تنتهي العاصفة قبل حلول الظلام».

قالت وهي تجثو بركبتيها على المقعد الطويل وتنظر من الكوة:

«لقد أوشك الظلام أن يحل بالفعل. هل تعتقد أن العاصفة ستهدأ؟»

«كلا».

اندلع برق خاطف في السماء مرة أخرى، فتوترت في انتظار زئير الرعد الذي يتبعه. وقال مات:

«لن يفيدك شيء، أن تجلسي في انتظار ما هو أسوأ. اذا كان هذا يخيفك. فلماذا لا تعملين على إعداد وجبة ما».

فنهضت مطيعة لتلبية ذلك رغم أن الطعام كان آخر شيء تريده في هذه اللحظة. ومن حسن الحظ أنها اشترت هذا الصباح فاكهة وبعض المأكولات.

وهناك مياه للشرب في الزورق. ولكن الخط ينتهي هنا. كان هناك مطبخ صغير لا يكاد يكفي للوقوف فيه، في نهاية القمرة، ولكن اسطوانة غاز البوتان لم تكن موجودة، فلم تكن ثمة طريقة للطهو أو اعداد شراب ساخن.

«أظن أنه كان يجب عليّ أن أذكرك بذلك، ولكنني لم أرجح أن يحتاج الأمر الى هذا».

«ولكن لماذا كان يجب عليك ذلك. انها مسؤوليتي حقاً لا مسؤوليتك. لقد قمت بما فيه الكفاية لرعاية الزورق من أجلي، وعليّ الا أكون بحارة غبية».

«لا أذكر أنني وصفتك بذلك».

فتنهدت وقضمت احدى قطع البسكويت وقالت:

«كلا. ولكن لا بد أنه راودك هذا الخاطر أحياناً».

وشعت القمرة مرة أخرى بوميض البرق على نحو مخيف. وعندما انحسر صوت الرعد في الهدوء النسبي للعاصفة المحتدمة والمطر الهاطل، قالت كريستي في غير ارتياح:

«كم الساعة الآن؟ لقد توقفت ساعتي».

«توشك أن تكون التاسعة».

فضبطت ساعتها وملأتها ببطء، وقالت وعقدة التوتر لا تزال تتملكها:

«هل تستطيع أن تبحر في الليل يا مات؟»

«هذا يتوقف على الظروف. ولكن من الأفضل أن أخبرك. أعتقد أننا سنظل هنا الى طلوع النهار».

شهقت قائلة:

«الى الغد؟ أتعني أننا مضطرون للبقاء هنا طول الليل؟»

«لا أجد ثمة وسيلة أخرى. فلا توجد علائم بعد على أن العاصفة ستعتدل».

بلعت ريقها، وشحب وجهها:

«نعم... ولكن... ليس الأمر الى هذا الحد».

مادت أرض القمرة فأمسكت بقبضة الحاجز الداخلي لتثبت نفسها. وبدأ مات يتكلم ولكن كلماته غرقت في صوت الزورق وهو يرتفع وينخفض بعنف ويحتك بجانب الميناء على نحو مشؤوم.

جاهدت كريستي للثبات إزاء الحركة التي أرعدتها، وحدقت في مات بعينين منزعجتين.

«هل الزورق انخلع عن مرساه؟ هذا الصوت... انني أشعر به يتحرك».

«المد يرتفع. وكان هذا حاجز الاصطدام، ومع ذلك سأتحقق».

وصعد من القمرة الى السطح. وكتمت كريستي زلزلتها وهي تنتظر ظهوره. وغمرها فيض الذكريات من اليومين الأولين اللذين قضتهما على السفينة فولكانيا. البحار الجبلية والسفينة تطفو وتتخبط كدلفين ضخم رغم أجهزة تثبيتها. والركاب معظمهم قد بلغ بهم الاعياء حداً جعلهم يريدون الموت. سيكون الأمر كذلك الآن. وربما أسوأ، خارج هذا الملاذ الصغير الخشن. كانت مجنونة لمجرد اقتراحها الابحار على مات.

وعندما عاد الى القمرة، وشعره وكتفاه تلمع بمياه المطر، تأملته المتشنجة وظلت صامتة.

«الزورق ثابت على ما يرام. وأعتقد أنه يحسن بنا أن ننظم أنفسنا لقضاء الليل وتوفر لنا أكبر قدر ممكن من الراحة».

«ليس هناك مكان كبير».

وكان ذلك صحيحاً. فقد كان التيشون، من حيث قاعه غير العميق، وقسم المراقبة الزجاجية فيه، الذي يجعله مثالياً بالنسبة للعمل بين الصخور، ومحركاته الاضافية لمزيد من السرعة، وصغر حجمه، زورقاً رائعاً. ولكنه كان سيئاً من حيث جوانب الراحة. فمكان المعيشة فيه كان ضيقاً وسيء الاعداد. وعندما أعاد نفسها تجهيز الزورق جعل اهتمامه بأنشطة الرياضة والتجارة أكثر من اهتمامه بوسائل الراحة. هناك معدات صيد، وأحواض مملوءة بمياه البحر لا يواء صيده،

وصندوق للمشروبات. ولكن لا وقود للطهي. ويبدو من مظهر المطبخ أنه لم يستخدم على الاطلاق، وكانت الأسرة خالية من الملاءات. وكل مصابيح الاضاءة لا تعمل، فيما عدا أحدها. وكان من الواضح أن العم نول لم يستضف أحداً على الزورق أبداً. ولم يكن يعنى براحته وهو يطفو به على الماء.

ولم يسفر البحث والتنقيب إلا عن قدر قليل مما كانت كريستي تريده أكثر من أي شيء آخر: ملابس جافة. وظهرت سترة بغير أكمام مصنوعة من قماش القلوع، وملاءة من الخيش يمكن أن تكون أفضل من لا شيء كغطاء سريع للفراش، وأخيراً مجموعة من ورق اللعب.

قال مات بسخرية وهو ينظر الى ورق اللعب:

«في وسعنا دائماً أن نلعب لعبة الصبر».

فردت قائلة:

«ما دمنا لا نستطيع غيرها!»

قالت ذلك بمرارة وهي تتمنى من كل قلبها لو كانت زودت الشيشون بتغييرات لملابسها ووسائل لاعداد فنجان من الشاي. ولكن ما كان في وسعها أن تتنبأ بحدوث مثل هذا! قالت تتحدث عن معطفها:

«هذا الشيء بالغ الوحشية والرطوبة من الداخل»

«ألم تجف الأشياء بعد؟»

فنهضت لتتحقق، وما لبثت أن عادت مقهورة:

«كلا. لا تزال رطبة».

فقال يغيظها وهي تعتصر نفسها لتمر في المكان المحدود:

«انك تشغلين حيزاً كبيراً، أنت وخيمتك هذه».

«انني لا أشغل شيئاً»

فتراجع وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

«بل تشغلين! وأود أن أذكرك بألا تطيري»

ورأت وميضاً راقصاً في عينيه فشعرت بغصة خنقتها بالألم. ولذعت عينيها دموع مفاجئة، وشعرت بنفسها صغيرة، سخيفة، لا فائدة منها. ولم يعد في وسعها أن ترد بغضب أو سخرية عندما يشرع مات في اغاظتها. كل كلمة وكل نظرة منه لها قوة الجرح. ولم يبد من قبل مالكاً لهذه القوة أكثر منه في هذه اللحظة.

تملكتها موجة عنيفة من الغضب والانفعال، فهتفت وهي تمر بجواره وتختطف حاجياتها:

«أتمنى لو كنت أستطيع. ولكنني لا أقدر.. أوه.. تنح عن الطريق!»

بدا مذهولاً:

«...انها ليست غلطتي».

«لم أقل أبداً أنها غلطتك. اغرب عني!»

حاولت أن تحتمي بالمطبخ وهي تجاهد محمومة لارتداء ملابسها الرطبة. وطرحت عنها معطف المشمع على الأرض ووقفت مولية ظهرها لمات، وقد تصلب كتفاها من اليأس. كان غضبها قد استنفد وامتلكها الفراغ المخيف عندما لم تجد مهرباً منه، أو من نفسها، أو من أي شيء آخر. كان لابد لها أن تفعل شيئاً، أن تقول شيئاً، ولم يكن هناك ما تفعله أو تقوله إلا مواجهة موقف لا يحتمل.

وخلفها وقف مات ساكناً، وقد اختفت من وجهه كل آثار السرور، وتقارب حاجباه وهو يتقدم الى الأمام قائلاً:

«ان فقدان الأعصاب لن يساعدك في شيء يا كريستي».

«أنا لم أفقد أعصابي»

«ولن يساعدك أيضاً ارتداء ملابس رطبة».

«لا أهتم بشيء قيد أنملة.. أتمنى...»

وهنا فرقعت السماء بغضب أخرس غضبها. وترنح الشيشون صعوداً وهبوطاً كأن مرساه سينتزع نفسه من مكمنه الصخري، وانحنت كريستي الى الأمام بلا حول ولا قوة. ولم تخطىء في مسكتها التي حاولت بها أن تنقذ نفسها، ولكنها

صدمت كوعها بحاجز المطبخ، فشهقت في ألم، وسالت دموعها التي لم يعد من الممكن حبسها.

«لا بأس. لا بأس».

قال مات ذلك وهو يمد يديه ويجذبها اليه. وطواها في ملاءة لم يكن لشيء آخر أن يحملها على تركه، وضغط وجهها على كتفه.

«انك خائفة من العواصف، أليس كذلك؟»

قالت بصوت مختنق:

«هذا خارج عن إرادتي».

فمسح على شعرها وكأنها طفلة مفزوعة وقال بصوت خفيض:

«ليس ما يخجل في الخوف لقد رأيت رجالاً يشحبون عندما يواجهون غضب المحيط الهادي».

«نعم، ولكن هذا أمر بالغ الحمق».

«كلا، انه ليس كذلك، انه شيء انساني جداً».

وأبعدها قليلاً عنه ونظر في وجهها المكتئب وأردف قائلاً:

«الآن أعتقد أنه لابد أن تحاولي النوم يا صغيرتي».

فمسحت عينيها وقالت وهي محجمة عن الخروج من بين ذراعيه:

«لست أشعر برغبة في النوم».

«لا يهم. تكوري وخذي قسطاً من الراحة».

شعرت بخجل مرير لتخاذلها، وسعت الى استعادة السيطرة على نفسها فجلست مطيعة على الفراش.

«هيا، ارقدي».

وعندما جلبت ساقيها الى الفراش، غطاها مات بالسترة وملاءة الجيش، ورقدت مفتوحة العينين ترقبه وهو يطفيء النور ويذهب الى الفراش المقابل، ولكنه لم يرقد بل شد اليه ركبتيه واستند الى الحاجز القائم، وبدا يقظاً.

«ألن ترتاح؟»

«كلا».

«ولكنك ستموت تعباً».

قال باقتضاب:

«سأتغلب على ذلك».

ولزمت الصمت وهي ترقب تلاعب أضواء الماء متعكسة على الجدار فوق رأس مات. وكانت ومضات البرق لا تزال تثير الأعصاب ولكنها لم تشعر بها الآن، بل بمجرد انتباه عميق لم يكن أبداً غير سار. ولم تذكر أنها أغلقت عينيها ولكنها عندما وجدت نفسها فجأة مستيقظة، انتصبت جالسة في الفراش، وقد أدركت أنها نامت بعض الوقت وأن شيئاً ما أيقظها فجأة. وأرهفت السمع، فلم تسمع دمدمة الرعد أو تساقط المطر على سقف القمرة. وكان الظلام قد اشتد عن ذي قبل، فجاهدت لتنظر وهي تتلمس الاحساس بالراحة لمجرد رؤية المظهر الخارجي لمات. ثم سقط قلبها اذلم يكن هناك.

وثبت من الفراش وقد جف فمها. وكان الزورق لا يزال يصعد ويهبط تصاحبه أصوات تنهدات وأنات ولطمات تحدثها عوامل الطبيعة بدون أن تتمكن من معرفتها، ونادت في خوف:

«مات؟»

«حسناً، أنا هنا».

وظهر هيكله المعتم واحتك بها قائلاً:

«كنت أتفحص مدى ارتخاء المرساة. ان المد ينحسر الآن».

تراجعت الى طرف الفراش قائلة:

«كم الساعة الآن يا مات؟»

«بعد الثالثة بقليل. نلت قسطاً طيباً من النوم».

سرت فيها رعدة فأحكمت السترة حول كتفيها.

«لم أكن أظن أنني نمت هذا الوقت كله. يبدو أن العاصفة مرت».

تحرك الى الفراش المقابل واتخذ وضعه الأسبق. وسمعت حركاته الطفيفة وهو يشعل إحدى سكائره.

«لقد مرت اسوأ مراحلها. وفي وسعك أن ترقدي من جديد».

أومأت برأسها ولكنها لم تتحرك. كانت ترتعد برداً. كانت رطوبة البحر قد تسللت الى كل شيء. فنهضت وفركت ذراعيها.

«ماذا بك؟»

«لا شيء. مجرد رعشة».

«ما كان يجب أن تنهضي. تدثري. سينتهي كل شيء قريباً».

غمغمت برد صغير ولكنها ظلت واقفة، رافضة النوم مرة أخرى. وانحنت الى الأمام تنظر من خلال الكوة تتلمس علامة قدوم الفجر في السماء، ولكن الظلمة الدامسة في الخارج جعلتها ترتعد من جديد. وتساءلت:

«ألا تشعر بالبرد؟»

«كلا. إن الجو ليس بارداً في الخارج. الريح دافئة».

«انني متجمدة».

وحاولت أن تضحك، ومدت يدها اليه قائلة:

«أتريد يداً باردة اذا لم تكن تصدقني؟»

فمد يده يتلمس يدها حتى وجدها فأمسك بها امساكة دافئة على نحو جميل.

«انك متجمدة».

بدا مندهشاً وظل ممسكاً بيدها وهو يميل جانباً بحثاً عن منفضة السكائر وتراقص الشرر وهو يطفىء سيكارته قائلاً:

«أين تلك اليد الأخرى أيتها القطعة الصغيرة الباردة؟»

وبنفس هدوء الصبر الذي واساها به في ذروة العاصفة جذبها بجواره وفرك يديها الثلجيتين برقة. وبينما كان يفعل ذلك أخذ يتحدث بنفس الأسلوب المنعزل،

عن زورق الشيشون، ومقارنته بزورقه، وعن الزورق الأكبر الذي يأمل في شرائه يوماً ما.

وأصغت كريستي. كانت في ظاهرها هادئة ومسترخية مثله ولكن احساسها الداخلي بالانعزال لم يكن موجوداً أبداً. فلم ترتعد بالبرد بل برعشة لذيذة دافئة من الغبطة كان مركزها قلبها، وهي تشع ببهجتها الى أطراف كل عصب فيها.

تساءل فجأة:

«أنت نائمة؟»

«كلا... بل مجرد انغفاءة».

«اكتشفت مبدأ قديماً جداً».

«ماذا؟»

فغير مكانه، وخلّص إحدى يديه وأحاطها بها ليجذبها الى وضع أكثر راحة وقال:

«... أن أفضل مصدر للدفء هو الجسم البشري».

كانت الأن متكورة في ثنية ذراعه، مستندة اليه. ولم يكن الأمر يحتاج إلا لأقرب خطوة فاذا برأسها على كتفه. ولكنها لم تجرؤ على اتخاذ هذه الخطوة الصغيرة خوفاً من أن تحطم هذا النعيم الدافىء الرائع. هذه حالة أخرى من حالات مات التي لا يمكن التنبؤ بها. فهو يستطيع أن يكون متغطرساً فظاً ساخراً نافذ الصبر، ولكن هذه أول مرة تعهده فيها على هذه الدرجة من الرقة.

تنهد. وكان تصاعد صدره خفيفاً بمثابة اتصال بها. فتثاءبت من أجل أن تؤجل لحظة ابعاده لها وقالت:

«من المزعج أن يكون المرء مفرط الكسل على نحو لا يستطيع معه أن يتحرك».

«أليس الأمر كذلك حقاً. أيتها الخائنة الصغيرة؟»

ولكنه لم يتحرك لاطلاقتها ونظرت من تحت ظلال عينيها الى اليد التي لا تزال فوق يدها في حجرها. كانت يداً قوية، حسنة التكوين، أصابعها طويلة

بأظافر جميلة، والرسغ عريض بشعر أسود يشكل ظلاً يسري الى الساعد. يد تحمل المهارة والثقة والقوة أيضاً.

«أتعرفين أن درجة وثوقك كبيرة أيتها الصغيرة؟»

هزتها الكلمات التي قيلت برقة ونعومة من حلم يقظتها الصغير. وتساءلت في همس:

«أهناك سبب يدعوني الى عدم الثقة؟»

عمق صوته بنبرة ضحك:

«هناك عشرات من الأسباب. ولكن يوجد سبب واحد على الأقل».

«تعني أنني يجب ألا أثق بك؟»

«ربما. ألا تخشين من أن أستغل ثقتك؟»

كانت تعلم أنه يضحك في أعماقه، وأن الهزل يوشك أن يبدأ. قالت بصراحة:

«انك لن تفعل».

شعرت به يأخذ نفساً عميقاً.

«ومن أين لك أن تعرفي ذلك؟»

«لأنه يسرك في هذه اللحظة أن تلعب دور العم. هذا هو السبب. طالت فترة صمت، ثم قال:

«هكذا الأمر اذاً».

وساد صمت آخر وبدأ التوتر يتجمع في أعماقها، توتر يحمل تحذيراً خافتاً كانت تعلم أنه يجب عليها أن تنتبه له، ولكنها لم تشأ ذلك. وقالت وهي تتظاهر بالتفتح:

«سيحل الفجر قريباً».

«مع تصفية الحساب؟»

«أعتقد أننا صفينا حسابنا».

«هل فعلنا ذلك حقاً؟»

وترك يدها، وصعد بيده ومس شعرها وعبث به. ثم رفع اليه وجهها وقال:

«ظننت أنني أوضحت تماماً مشاعري بشأن مسألة العم هذه».

قالت بصوت غير طبيعي:

«لقد أوضحت أشياء كثيرة».

«ربما لم أوضحها بما فيه الكفاية. ألا تزالين تثقين بي يا كريستي ايرفن؟»

شعرت بدفء انفاسه على عنقها، ولكن أنفاسها هي لم تعمل. حبست في مكان حول قلبها الذي كان يطرق بشدة. وتسربت نفَساً صغيرة بين شفتيها المنفرجتين وما لبثت أن همست بعناد:

«نعم، انني لا أزال أثق بك».

«أيتها المجنونة الصغيرة».

وضاعت الكلمات عندما عثر فمه على أطراف أهدابها بشكل حرك حواسها.

وفي مكان ما من أعماقها كان ثمة صوت صغير يائس يهتف بها أنها أثبتت ما تريد، وهو قبل تحديها، وأن مات ديبهام هو آخر رجل يمكن أن تلعب معه. وحاول هذا الصوت أن يخبرها أن مات لا يزال منفصلاً عنها، وأن عناقه لا يلزمه بشيء، وأن الوقت قد حان لاعادة الكلفة الى الدعابة. ولكن الوقت كان قد فات. كانت ذراعاها تتسللان من حوله، وكانت القوة الهاجعة الأخرى تزأر بردها على الدفء الحسي لكتفيه تحت يديها. وتبدد التوتر في داخلها فجأة وذاب جسمها لضغطه، وتحرك فمه على خدها بقوة سلبتها أنفاسها.

وكانت ترتعد عندما تراجع عنها ونظر الى غباء وجهها المنتقع، وقد سترته الظلال. وكانت أنفاسه ممزقة ولكن لمسة أصابعه كانت محرومة ومتعمدة وهو يربت بلطف الريشة ببطء على خدها، من سالفها الى نبضها في رقبتها. وقال برقة:

«هل خيبت أملك يا كريستي؟»

شملها هدوء غريب. وبدت عيناها غامضتين مثل عينيه. فجذبت يده المرتبة ببطء وجعلتها في يدها، ثم رفعتها وقبلت ظهرها قبل أن تقول بهدوء:

«في وسعي أن اسألك نفس السؤال يا مات. وانني لأتساءل ان كنت ستجيب عليه».

«أعتقد أن من الأفضل ألا أفعل. كذلك سيكون من الأفضل ألا تساورنا أفكار عما حدث».

ونهض وأضاء النور، فصدرت عنها شهقة احتجاج غريزية. ولكنه تجاهلها وتفحص وجهها المحمر وعينيها المقرطتين في البريق، وتسلل الى تعبيرات وجهه قدر من الوجوم. وما لبث أن انحنى وطبع قبلة قوية على شعرها قائلاً:

«فلنقل فقط انك فتاة مشتهاة يا كريستي. ولندع الأمر عند هذا الحد».

٧ ـ فأر في سفينة محطمة!

مرة أخرى تولى مات السيادة كلها. ادار لها ظهره كأنما لم يحدث شيء، وتركها جالسة هناك، وتمدد على الفراش الذي كانت قد أصلحته. وجذب الغطاء، وقال وهو يخلع ساعة يده:

«اريد ساعتين من النوم. أيقظيني في السادسة، لا دقيقة قبل ذلك أو بعد ذلك. ضعي هذه في يدك فان ساعتك لا تعمل ابداً بدقة».

تناولتها في صمت وذهول، وتلمست تثبيتها في يدها. وعندما نظرت اليه كان قد اختفى تحت الغطاء فيما عدا ظلال رأسه. ولكن صوته كان واضحاً:

«لا تغادري الزورق. ولا تلمسي أي شيء، وحاولي ألا تقعي من فوق الزورق».

«سأحاول أن أتذكر هذا كله».

وضعت في عبارتها أكبر قدر ممكن من السخرية، ولكن لم يأت منه رد. فأسندت ظهرها! أمامها أشياء كثيرة تفكر فيها. هو يظنها اذاً فتاة مشتهاة. وتذكرت أن تقوس فمه كان يحمل لمسة سخرية. وتسللت الى ذاكرتها حادثة صغيرة خلقت من بهجة عناقه. ماذا يكون موقفه لو أنها مسحت فمها بيدها وبدأت تتحدث عن الدليل؟

ما لبثت أن نهضت وخرجت الى السطح. كان الليل لا يزال مظلماً. والمياه هادئة الآن وهي تلطم الزورق في رفق. وجلست في المقدمة. لقد بدأت بعض

مظاهر القيظة التي ألمت بها، والتي تصاحب الحب عندما يكتشف. لقد هربت من سؤاله عن خيبة أملها بنفس البراعة التي تفادى بها سؤالها. ولكن ماذا كان يمكن أن يكون دوره؟ لا يمكن أن يكون هناك شك في رفضها، وإن لم يستطع حتى التعذيب أن يستخرج منها اعترافها ما لم... ولكن الأمر يختلف مع مات... انه الرجل الوحيد في العالم الذي تود الانجذاب اليه ولكن هل هو منجذب إليها؟

واهتزت كريستي بزلزلة لم يكن لها صلة بالبرودة التي مرت بها. ان مجرد التفكير بمات دينهام يكفي للاسراع بضربات قلبها. ولكن فلنفترض أنه يظن أنها يمكن أن تدع أي صديق يعانقها ويربت عليها هكذا!

تجنبت السؤال، وشرعت في اعداد نفسها بمظهر حسن لليوم الجديد على قدر ما تسمح الظروف. وبعد أن اغتسلت ودلكت جسمها شعرت بتحسن، وثقة أكبر. وأقنعت خيالها في المرآة وهي تمشط شعرها بأنها لم تقع في حب مات دينهام في أية حال. ان الأمر كله تهيؤات، وماذا يكون غير ذلك مع هذه العاصفة المزعجة والغذاء أسباب عودتها، وبللها، وبرودتها، وإحساسها بالتعاسة في ملابس رطبة. ان هناك كل عذر يجعلها تشعر بالضيق، وأنها تحت العدل في مزاجها العام، وغير قادرة على تقبل مزاحه و... توقفت اليد التي كانت تمسك بالمشط في الهواء، وأظلمت عيناها بسرعها في المرآة. لا بد أنه يحبها بقدر قليل. لا يمكن ألا يكون تأثر تماماً بادراكها عندما...

وهنا عاودت التمشيط بجذبات صغيرة قوية، بينما انفرجت شفتاها عن صوت صغير كان بين الضحك والنشيج. إنها حمقاء. لماذا اهتم بعناقها؟ خاصة عندما كانت في مثل هذه الفوضى! لا بد أنها كانت تبدو ليلة أمس كفأر في سفينة محطمة.

وفي الوقت الذي أيقظت فيه مات كانت قد أفلحت في اغلاق ذهنها عن هذه الفكرة المزعجة. وهو بدوره بدا هادئاً، وتحسس ذقنه. فقالت في نبرة متأنقة: «يمكنك أن تطيل لحيتك».

«مثل بابا نويل!»

وظلت صامتة وفي الخارج كان البحر قد هدأ تحت غلالة من الضباب اللؤلؤي والنسمة قوية بشكل منعش. ولكن علائم الخراب التي حدث أثناء الليل كانت مرئية. أغصان مقطوعة وزهور ممزقة وثمار جوز الهند محشورة وبارزة في قطع عائمة من الركام. وقال مات وهو يميل على جانب الزورق محاولاً الامساك بجوزة هند:

«لقد عانى غيرنا أكثر مما عانينا».

فغمغمت وهي ترقب الثمرة تفلت من بين أصابعه الممتدة:

«آمل ألا تكون قد حطمت سقفي مرة أخرى».

ولم تلق بهذه العبارة في خوف حقيقي. ولكنها بدأت تتساءل اذا كانت العاصفة قد أنزلت خسائر بالفعل. ولهذا شعرت بالارتياح عندما رأت كل شيء يبدو طبيعياً تماماً والزورق يمضي بحذر عبر سلسلة الصخور الى هدوء البحيرة وما لبث مات بعد أن نزلا أن جذب شعرها على نحو ودي قائلاً:

«أراك قريباً».

ثم خطا صوب الكوخ الاخضر وتوقفت وخيبة الأمل تمر بظلالها على وجهها قبل أن تستأنف السير. ماذا توقعت؟ أن يتوقف ويطيل لحظات الوداع؟ أن يرسم لها خطط الغداء وبقية اليوم؟

كان البيت الصغير على ما تركته تماماً في الصباح السابق. ومع ذلك هناك فارق مجهول في جوه دهمها لحظة دخولها. الوحدة؟ عبست وهي تضع حقيبتها على مقعد ان الأمر يبدو وكأنها لم تعد تنتمي اليه.

وعندما أخذت حماماً وغيرت ملابسها بعض الطعام بدأ الوقت يتوقف. ولمع نجمها الهادئ، أخيراً في السماء، وراودها إغراء بأن تضع قبعتها وتسير الهوينا على الشاطئ. وقاومت الاغراء معظم فترة بعد الظهر ثم عثرت، بفرح خفي، على طريقة تخدع بها كبرياءها. كان ظاهراً ساذجاً في الحقيقة، أن تبحث عن بعض

الكتب التي أعارها لوني اياها لقد قرأتها. ومن العار أن تتخلص منها فهي من المؤكد وجبة قراءة خشنة قوية تصلح للرجال.

وضعت القبعة القش الكبيرة على رأسها وخرجت الى الشرفة وقد بدأت ضربات قلبها المتسارعة تنبيء بما يساورها. وهنا شاهدت السهم الأبيض عبر البحيرة فأفلتت منها صيحة فزع. كان اللنش متجهاً الى مكان رسوه وبه ميلاني هايدون، هادئة جميلة ترتدي ثوبا ورديا فاتحاً، وقبعة كبيرة بألوان متناسبة. وأسرعت الى البحار بكلمة ثم مضت على الشاطىء، تخطر برشاقة مشوقة.

هتفت كريستي من بين أسنانها الضاغطة، وهي ترقب ميلاني تتقدم بعينين غاضبتين الوجهة دينهام!

وعادت الى الداخل وألقت بالكتب. كيف نسيت ميلاني؟ احدى غزوات مات كما قال لوني وماذا أنت؟ هكذا سألت نفسها بغضب.

وأخذت تذرع الغرفة وقد سقطت فريسة لآلام الغيرة. أين موقع ميلاني المثيرة هذه في حياة مات؟ انه لم يذكرها أبداً. ولكنه لم يذكر كذلك أية امرأة أخرى.

وبعد عشر دقائق لم تعد كريستي تحتمل تأرجح عواطفها. فأخرجت في غرفة نومها كل ما تملكه من ملبس واختارت الثوب الوحيد الذي كان يمكن أن ينافس ثوب ميلاني الحريري الوردي الفاتح.

كان ثوبها مرجاني اللون، وثبتته على جسمها في الأماكن المقصودة فتعلق بها بتأكيد رقيق ليبدو رقيقاً، أنثوياً، ومحتشماً في الوقت نفسه. ولدهشتها وبهجتها، أظهر كذلك ألوان بشرتها الجديدة التي ازدادت عمقاً، بدرجة من الرقة لم تحدث من قبل. وبرفع الشعر وشيء من أحمر الشفاه وماكياج العيون وروائح العطر..

لماذا تتخذ مقعداً خلفيا بمجرد أن ميلاني قررت أن تزوره؟

ومشت الى الكوخ الأخضر بقلب متسارع الضربات، لا يساعدها إلا شبابها

الجرىء، وغريزتها. ويبدو أن ينبىء مظهرها العرضي عن الغليان الذي يضطرم في داخلها. عبرت بجرأة الباب المزدوج ونادت على نحو ضعيف تعلن قدومها. ثم تظاهرت بالدهشة لدى رؤية ميلاني. وابتسمت لمات قائلة:

«معذرة يا مات، لم أعرف أن في صحبتك أحداً. لقد جئت فقط لأقدم لك هذه.»

وتأملها للحظة وهو يستعرض بشكل سريع مظهرها المختلف وقال بإهمال:

«شكراً. ضعيها هناك. أتودين شراباً؟»

«نعم من فضلك».

وتساءلت ميلاني وهي تظهر أدباً على نحو مفعم بالسأم:

«وكيف حال تجارة الأصداف؟»

تناولت كريستي كأس الشراب، وجلست على سجيتها في المقعد الخيزراني بجوار النافذة. وقالت:

«طيبة جداً».

«لا بد أنها كانت تسلية مكلفة».

رفعت رأسها في فخر قائلة:

«لقد استحقت كل بنس أنفق فيها. ولكنها في الحق لم تكن مكلفة. فتكاليف العيش هنا بالغة الضآلة على نحو لا أكاد أصدقه. لا ايجار ولا رسوم، ولا فواتير وقود. ومشروبات الشراء الباهظة الثمن في المحال قليلة».

أسندت ميلاني ظهرها ووضعت ساقاً من ساقيها الجميلتين النحيلتين على الساق الأخرى وقالت:

«أتمنى أن تنتهي مدة أبي. ولكن أمامنا عاماً قبل أن يستدعى».

هزت كريستي كتفيها وعكفت على شرابها. وبقي مات صامتاً. فنظرت اليه ميلاني من فوق رأس كريستي وقالت في حلاوة خادعة:

«أظنك لم تشجع كريستي على أن تكون اجتماعية».

«انك تنسين، فأنا لست هنا لأكون اجتماعيا. ولذلك فانني لست على اتصال

بالدائرة الاجتماعية».

تلقت ميلاني هذا التوبيخ الرقيق بدون استياء ظاهر، والتفتت الى كريستي قائلة:

«هل لبيت دعوة جان شالمرز؟»

ترددت كريستي وهي غير موقنة أين ينتهي هذا الاستجواب وقالت:

«حسناً قبلتها مرة واحدة، لمجرد بضع دقائق، ولم أكن متأكدة من أنها ليست واحدة من تلك الدعوات العرضية التي يلقى بها الناس. انك تعرفين طبيعة الأوضاع. فليس من السهل ان أصل الى تاموتوا. ثم ان الوقت يمر بسرعة».

«نعم، يبدو كذلك. تعلمين أن الجالية الأوروبية هنا ليست كبيرة، ونحن نميل الى أن نكون تقليديين بشأن عاداتنا الاجتماعية. ان توجيه دعوة عرضية لمقابلة أحد إنما ذلك تعني بالضبط في أي وقت. وانني أدهش لأن مات لم يوضح لك ذلك».

«يوضح لي ماذا؟»

نظرت كريستي الى مات ولكنه هزّ رأسه كمن يقول ابقوني بعيداً عن هذا.

«حسناً ان اختيارك للاصدقاء كان بعيداً عن التحفظ بعض الشيء. قالت لا تزالين شابة. ولقد أدى ذلك الى دهشة بعض المقيمين الأقدمين».

كادت كريستي تضحك لو لا فرط الاستياء وهتفت:

«ماذا؟ يحسن أن يحصلوا على آلة الزمن ويعودوا الى لندن. ما عيب اصدقائي على أية حال؟ انك لا يمكن أن تعني إلا مات».

«لا، لست أعني مات».

«اذا فلماذا لا تقولين انك تعنين لوني وبن؟»

ولم ترد ميلاني، ولكن حركة كتفها الرشيقة قالت الكثير. واستطردت كريستي قائلة بحزم:

«انني أحب لوني وبن. لقد أظهرا عطفهما عليّ عندما جئت. ثم انهما صريحان

وجادان تماماً».

«استطيع التفكير في شخصين على الأقل لا يتفقان معك».

«أنت اخر الناس كما أحدهم».

وعكفت على صمت غير ودي، وهي تدرك تماماً أن كراهية ميلاني مثل كراهيتها، ولكنها لم تستطع أن تتظاهر بالتلطف الاجتماعي... وما لبثت ميلاني أن قالت برقة بعد لحظة:

«هل قلت شيئاً ما كان يجب عليّ أن أقوله؟ التي لم اقصد أن أضايقك».

«لا بأس».

قالت ذلك في غير تلطف بالغ وهي تدرك العبوس الذي بدا بين حاجبي مات. فاغتصبت ابتسامة براقة وأردفت قائلة:

«ربما يتعين عليّ أن أقيم حفلا في احدى الليالي. جوز الهند وأكاليل الزهور والاستحمام في البحيرة على ضوء القمر».

ابتسمت ميلاني ولكن ابتسامتها لم تصل الى عينيها. وما لبثت أن غيرت الموضوع وبدأت تمطرها بالاسئلة عن الأوضاع في لندن. الا أنه عندما أخبرها مات بأن اللنش قد عاد لأخذها، قالت بود يحمل على الاستسلام أن كريستي يجب أن تقضي يوما في الجزيرة الرئيسية ضيفة عليها... وكان من المستحيل الرفض، فتم ترتيب الضيافة لليوم التالي بحزم شكت كريستي بأمره. وقالت ميلاني:

«سأرتب مع سامي ليأخذك من هنا في العاشرة صباح غد. موافقة؟»

أومأت كريستي برأسها فالتفتت ميلاني الى مات قائلة:

«وماذا عن انضمامك الينا أنت أيضا؟ لقد فكرت في اصطحابها الى بركة كونتينا بعد الغداء».

هزّ مات رأسه قائلاً:

«أما أنا فاستبعدوني. لقد أضعت وقتاً كافياً أمس».

لم تنتبه كريستي الى أهمية هذه العبارة، بينما قالت ميلاني:

«أوه، نعم، العاصفة. ألم تكن فظيعة؟»

«نعم، لقد حوصرنا في لونا، من بين كل الأماكن التي يمكن أن يتعطل فيها المرء».

حقيقة أنها كانت أوجز وأهدأ عبارات من جانب مات. ولكن شيئا بدا في عيني ميلاني وهي تنظر الى كريستي. وقالت بعد فترة صمت قدرت فيها الموقف:

«لقد كان حسناً أن يكون مات في صحبتك».

قاطعها مات قائلا:

«اللنش ينتظر. سنوصلك».

وتقدمتها ميلاني بخطوة وثلاثتهم يقطعون المسافة القصيرة الى حيث كان اللنش. وقالت لها ميلاني ليلة طيبة وركبت الزورق وحيتها قائلة:

«الى الغد اذاً».

وقال مات لكريستي:

«حسناً، سأصطحبك الى البيت».

«نعم، ولكنني تركت حاجياتي».

فلم يقل شيئا حتى دخلا الكوخ. وهناك أراح ذراعيه على سور الشرفة وقال:

«ادخلي وأحضريها».

هل هو في عجلة للتخلص منها؟ تساءلت عن ذلك وهي تمضي الى الداخل. لقد كان منطويا الليلة فهل هو غاضب؟ ولكن سلوكه ظل غامضاً عندما لحقت به ومضيا على الشاطىء، ولم يتكلم على الاطلاق الى أن وصلا الى البيت الصغير. نظر اليها وقال:

«أظن أن هذا الثوب يدعو الى قبلة مساء».

«الثوب فقط؟»

«لا أريد أن أحدد الدافع أكثر من ذلك أيتها الصغيرة».

وجذبها اليه وقبلها من رأسها. وقالت بعد أن انسلت من بين ذراعيه:

«كانت أمسية جميلة. ولكنني آمل ألا أكون ضايقت ميلاني».

«وهل سيجافيك النوم لو كنت فعلت ذلك؟»

«حسناً، نعم بالطبع».

وعضت شفتيها لهذه الأكذوبة الصغيرة وترددت ثم قالت:

«هل تدخل لتتناول بعض الشراب قبل عودتك؟»

«وهل تعتقدين أنه يجب عليّ ذلك؟»

«لست أدري. انني اتساءل فقط».

وظل لحظة صامتاً، ثم لمس كتفها بخفة قائلاً:

«أعتقد أنك أثبت وجهة نظرك أيتها الصغيرة».

وبينما أخذت ترقبه بعينين متسعتين لوح بيده في اشارة تحية مقتضبة، ثم مضى.

كانت ميلاني هايدون مضيفة منزهة من الأخطاء والعيوب عندما تريد ذلك. كانت تنتظر وراء عجلة قيادة سيارتها الصغيرة الحديثة ذات المقعدين عندما وصلت كريستي الى الجزيرة الرئيسية في صباح اليوم التالي. وقادت السيارة بسرعة وعلى نحو جعل كريستي تحسدها سراً. وتوقفت أمام فيلا بيضاء كبيرة تقع بين منحدرات الغابة والشاطىء عند نهاية الخليج. وهناك جزء خاص من الشاطىء لآل هايدون بالاضافة الى حديقة كبيرة. وكان داخل الفيلا مثل ميلاني نفسها في ثوبها ذوقاً لا خطأ فيه.

ولم يكن السيد هايدون موجوداً، أما السيدة هايدون فكانت سيدة رقيقة صغيرة الحجم فيها آثار غاربة من جمال ابنتها الأسمر. كانت لطيفة مع كريستي على الغداء الفاخر، ولكنها كانت غامضة تتحدث عن صباها في نيوزيلندا وعن أناس لم تسمع عنهم كريستي أبداً. ونبهتها ميلاني

مرتين الى أن كريستي لا تدرك شيئا مما تقول. فبدت مستاءة. وسرت كريستي عندما انتهى الغداء، وتوجها بعد ذلك بالسيارة لمقابلة جان شالمرز. ورغم أن كريستي كانت قد قضت في المنطقة عدة أسابيع فلم تكن قد رأت من نامونوا الا المطار والفندق وزمام البلدة عند رصيف الميناء. ولكنها شاهدت معظم معالم الجزيرة مع جان شالمرز التي كانت فتاة بارعة الجمال أكبر سنا من ميلاني بقليل، ومع شابين في صحبتها هما ريتشارد وبريان. وكان أحدهما زائراً والآخر مساعداً لوالد جان الدكتور شالمرز. وكان في الجزيرة طريق واحد يمتد حول نصفها وينتهي الى سد على مسافة نحو نصف ميل من بركة كورينثيا وكانت البركة هي المشهد الرئيسي كما قال بريان جميلة ومؤثرة. المياه تنبع من ينبوع جبلي وتسقط نحو ستين قدماً الى بركة ضخمة صنعتها قوة الشلال عبر الزمن. وحولها نمت وأزهرت بوفرة شتى النباتات، مثل الزنجبيل والأوركيد البري والنباتات ذات الزغب، وكان ثمة ستار كثيف من النباتات المتسلقة يخفي سلما طبيعيا من الدرجات الصخرية في أحد جوانب البركة.

كانت بقعة مثالية لتناول الطعام من السلة التي أحضرها الرجلان، ولكن بدا كأن شيئا سيطر على كريستي. فقد أبت أفكارها بعناد أن تظل بعيدا عن مات دينهام. وهنا لحت عن ذراعها حشرة ملحة.

ولهذا فلم تكن آسفة عندما حان وقت الرحيل. واذا لم تعد متأخرة فيمكنها الذهاب الى مات لتخبره عما فاته. وبقي معها حلم يقظتها الصغير السار وهي تشكر السيدة هايدون على ترحيبها بها وتركب السيارة. ولكن لدهشتها لم تمض ميلاني الى رصيف الميناء مباشرة، بل أبطأت بالسيارة في منتصف الطريق وأوقفتها في بقعة صغيرة خالية تواجه الخليج، وابتسمت أمام نظرة ميلاني المتسائلة وقالت:

«أمامنا وقت كاف قبل مجيء اللنش. أريد أن أتحدث اليك».

«فيم؟»

ثبتت ميلاني فرملة اليد والتفتت لتواجهها قائلة:

«ألا تعتقدين أنك تظهرين نفسك بمظهر الحمقاء بالنسبة الى مات دينهام؟»

«أنا؟ ماذا تعنين بالضبط؟ وبأي حق تقولين ذلك؟»

قالت ميلاني بنعومة:

«ظننت أنك ستتخذين هذا المسلك. ولكن يجب أن يخبرك أحد ألا تهدمين أبدا بسمعتك!»

شهقت كريستي قائلة:

«ماذا تعنين؟ سمعتي؟ يا لجرأتك!»

«اسمعي وحاولي التفهم. هذه ليست لندن. ماذا تتوقعين اذا ذهبت تعيشين في جزيرة لا يوجد بها شخص آخر سوى رجل؟ فتاة انكليزية شابة تقيم في كوخ أحد متسكعي الشواطىء! ألا تدركين أن الجميع هنا يتحدثون عنك؟»

«الناس يتحدثون في كل مكان. وأنا لم أسمع عن أحد يتحدث. ان جان لم تتصرف معي وكأنها تعتقد أنني لست شريفة».

«ان جان بالغة الحياء لدرجة لا تجعلها تخبرك بشيء. ولو حاولت مصادقة الأشخاص المناسبين بدلاً من هذين التاجرين المفزعين لكنا قد حلنا بينك وبين ظهورك بمظهر الحمقاء».

قالت كريستي بعد فترة صمت مفعمة بالصدمة:

«تزورين مات أنت نفسك. فلماذا يختلف الأمر معك؟»

«انني لا أقيم هناك، هذا هو الفارق، ثم أن أبي صديق لأسرة مات».

وتصلب فمها ولمع في عينيها شيء قاس. وأردفت:

«انك تجعلين الأمور بالغة الحرج بالنسبة لمات».

بدأت كريستي ترتعد في أعماقها ولكنها أبقت صوتها ثابتا:

«لا أعتقد ذلك. أليس هو أفضل حكم في هذا الشأن؟»

«ليس في هذه الحالة. لأن كل الرجال يصلون الى نقطة يكن فيها للظروف ولفتاة

شابة حمقاء أن تجعلهم يفقدون أبعادهم. ولو كان قد عمل بنصيحتي من البداية لما حدث ذلك على الاطلاق».

«ماذا تعنين؟ أية نصيحة؟»

«أن يشتري هذه التجارة المجنونة التي أقامها عمك بما تستحقه. لتذهبي من هنا. ان الشيء الوحيد الذي يستحق...»

وهنا اندلعت كريستي قائلة:

«اسمعي. ابعدي عمي عن هذا الموضوع. انه لم يكن متسكع شواطئ» بل كان رجلاً طيبا جداً له فلسفة كريمة في الحياة. وهو أكثر مما لديك. لماذا لا تهتمين بشؤونك فقط؟ لا صلة لك اطلاقا بمكان اقامتي أو بما أفعل. وبهذه المناسبة ماذا يعنيك أين يقيم مات؟ أو أن الأمر يعنيك؟!»

هنا خطر لها فجأة احتمال مفزع فوضعت يدها على فمها. لا يمكن أن تكون ميلاني... ما لبثت أن همست اليها:

«أنت لست مخطوبة لمات... أليس كذلك؟»

تقوس فم ميلاني الأحمر بابتسامة بالغة الوهن. وظهرت ملامح تسويتها فهزت رأسها ببطء وقالت برقة:

«كيف يمكن أن أكون كذلك؟ ألا تعرفين؟»

امتقع وجه كريستي وهي تحدق في انبهار مفزع الى عيني ميلاني:

«أعرف ماذا؟»

«أن لمات ولدين!»

«ولدان!»

أومأت ميلاني برأسها قائلة:

«الاكبر في مدرسة داخلية على ما أعتقد والاصغر في نحو السابعة».

قالت كريستي بصوت مخنوق:

«انني لا اصدقك. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً».

«ولكنني أسفة لأنه صحيح فعلا».

أخذت كريستي تلوي يديها حتى ابيضت مفاصل أصابعها. وقالت:

«انه لم يقل ذلك أبداً انه لم يخبرني أبداً!»

وسمعت صوت ميلاني كأنه يأتي من بعيد:

«ان مات نادرا ما يتحدث عن نفسه أو عن أسرته. وأنا متأكدة من أنك على ما أنت عليه من سذاجة لا بد قد أدركت أنه لم يكن يريدك أبدا في الجزيرة في المقام الأول».

«ولدان!»

هتفت كريستي وهي تشعر كأن قنبلة انفجرت خلفها. وقد عجزت عن تفهم أن ما يحدث ليس كابوسا مفزعا. والتفتت بحماقة عمياء الى الوجه الجميل الساخر:

«أتعنين أن مات... رجل متزوج؟»

أومأت ميلاني برأسها. وعيناها باردتان تنمان عن حقد وعناد ثم انطلقت بالسيارة في صمت وهدوء.

٨ ـ حسرة في القلب

بعد الصدمة جاء تبلّد الاحساس.

لم تذكر كريستي إلاّ قليلاً عن خروجها من سيارة ميلاني وركوبها اللنش في رحلة العودة، وعن اخراجها بعض العملات لتنقد البحار أجره، وهو يسألها شيئاً. ولكن يبدو أنه كان يريد مزيداً من النقود فأومأت له برأسها بطريقة آلية ومضت لا تكاد ترى طريقها الى البيت.

مات متزوج!

حدّقت في إشعاع المصباح البيضاوي حتى ملأ كل بصرها وذابت الغرفة الصغيرة الموحشة من حولها. لماذا لم تفكر أبداً في الشيء الحيوي الوحيد الذي كان يجب أن يكون في مقدمة الأمور! ولماذا لم يبد مات أهون سبب يجعلها تشك في أنه متزوج!

ولم يطاوعها النوم. بل تحلل التبلّد وبدأ الألم. أخذت تتقلب طوال الليل. تحاول أن تكره مات، ألاّ تهتم، وتحتقر نفسها لضعفها. الآن تتذكر الأيام الأولى وهي تستعرض حماقتها. مات يحذرها ويبدو نافد الصبر متغطرساً. هذا هو السبب. لقد كان واثقاً من جاذبيته. ولابد أنها كانت تبدو ساذجة وبدون خبرة بشكل مؤلم. وربما سرّه أن يكسبها اليه رغم أنفها.

بدا كأن الفجر لن يأتي. وعندما تسلل الى الغرفة أخيراً أول بصيص من

النور، ألقت الغطاء جانباً ونهضت لتواجه القرار الذي كان لابد من اتخاذه.

ميلاني محقة. انها لا تستطيع أن تبقى هنا. ولا تستطيع أن تواجه مات. وليس هناك إلاّ جواب واحد. أن تعود الى موطنها. وفجأة استبد بها الحنين الى وطنها وأسرتها فشعرت بغصة في حلقها، وغمغمت ساعود، وسأعدهم جميعاً على ماهم عليه. أما أنا فسأكون مختلفة.

وبعد ساعتين لم تكن قد فعلت شيئاً أكثر من التجوال في البيت. تلتقط الأشياء ثم تعيدها، محاولة أن تبدأ مهمة تعيسة هي حزم متاعها. ماذا ستفعل في كل ما تركه عمها من أشياء؟ لا تستطيع أن تشحنها الى موطنها. فيما عدا أشياء قليلة فليس هناك ما هو نفيسة، إلاّ من الناحية العاطفية. أما بالنسبة الى الزورق ومعدات القطس وسائر البكر والحبال فستتركها لمات. ربما يعجب بها ولداه! أما لوتي وبن فسيساعدانها في التخلص من سائر الأشياء. نعم لوتي سيساعدها. وهنا جلست مرة أخرى وأخذت تحملق في الفضاء، وتراءى اليها وقع أقدام رقيقة في الشرفة فقفزت في ذعر... مات! حاولت أن تهرب ولكن جاءها صوت غريب يدعوها باسمها، وتجمدت ملامح وجهها بالدهشة وهي ترى البحار في الخارج.. قال لها مبتسماً:

«لقد طلبت اللنش يا آنسة. اللنش مستعد».

بدا لها كأنه الرد الذي تحتاج اليه أشد الحاجة. وبسرعة خطفت قبعتها وحقيبتها وأسرعت خارج البيت.

ولم تكن لديها فكرة واضحة عما ستفعله في تاموتوا، أو كيف ستشغل يومها. كل ما دفعها من قوة واضحة كان الحاجة الى تجنب مات. ومن سوء الحظ أن قابلت جان شالمرز بعد وصولها بدقائق. وكان أمام جان ساعة تضيعها. فلم تكن كريستي تدرك من قبل كيف يكون عسيراً أن يبدو المرء متألقاً لا يشغله شيء، في الوقت الذي يتحلل فيه العالم فجأة ليصبح حسرة في القلب.

وتناولت معها بعض شراب الفاكهة. ودعتها جان الى قضاء يوم مع

أسرتها، دعوة غامضة عرفت كريستي أن سبب غموضها هو الحياء، وأحست بالذنب وهي تشكرها وترد على دعوتها بإجابة غامضة أيضاً. فالرفض والقول بأنها ستعود الى انكلترا سيؤدي لا محالة الى مزيد من الشرح بعودة لا تساعدها عليه رباطة جأشها.

وجرت قدمها الى المحل. لوأن لوني لا يلقي أسئلة. وانتهى الترحيب فأعلنت بهدوء أنها راحلة. قال لوني:

«كان اعتقادنا أنك لن تبقي طويلاً بعد أن سافر مات»

لم تستطع أن تقمع صيحة دهشة، واستمر لوني يقول:

«كل الأمور الطيبة تأتي الى نهايتها. هل ستركبين نفس الطائرة؟»

«كلا! لا علاقة للأمر به. انني أريد منكما أن تساعداني في التخلص من كل شيء بأسرع وقت، ثم...»

تساءل بن

«ألن تعودي؟ أتعنين أنك ستسافرين بلا رجعة؟»

«بلا رجعة. ما هو موعد الطائرة التالية؟»

«لقد فاتتك، ذهبت هذا الصباح. مابالك؟ أثمة شيء خطأ؟»

«كلا، ولكن لابد أن أعود في وقت ما. ما هو موعد الطائرة التالية؟»

«في خلال عشرة أيام»

«عشرة أيام! أوه، كلا! لا شيء قبل ذلك؟»

هز لوني رأسه. فقالت وهي تتنهد:

«ستكون هي اذاً هل تحجز لي؟»

فأومأ برأسه، وبينما كانت تمضي الى الخارج أوصتهما بألا يخبرا أحداً برحيلها.

وعندما عادت بالزورق رأت مات جالساً في شرفة الكوخ. ومالبث أن جاء يقطع عليها الطريق، ودعاها الى بعض الشراب، ولكنها لم تدخل بل بقيت في الشرفة. وسألته وهي تتناول الكأس:

«متى تعود الى موطنك يا مات؟»

«خلال أسبوعين. لقد قضيت هنا ثلاثة أشهر ولابد أن أعود للفصل الدراسي الجديد. وسأقوم بجولة محاضرات خلال شهرين»

«ستكون زوجتك مسرورة. لابد أنها افتقدتك»

«ماذا؟»

بدت في صوته الدهشة والغضب، فقالت:

«ثلاثة أشهر وقت طويل»

«وماذا تعنين بذلك؟»

«ما قلته... ولكنني... كنت أود أن تقول لي بنفسك. لقد كان ذلك يمنعني من أن أجعل من نفسي حمقاء. ولا عجب أنك قلت لي ألا تساورني أفكار بشأنك»

قالت ذلك بصوت متهدج، وفم مرتعش. وظل صامتاً برهة طويلة، ثم قال بخشونة:

«أخبريني يا كريستي. ماذا كنت تتمنين أن أقول لك؟»

لمعت عيناها بالدموع، وهتفت:

«يا للسماء يا مات! هل يجب علي أن أصارحك؟ انني أتمنى لو كنت قابلت زوجتك. انني موقنة من أنها جذابة. لماذا لم تأت بها لقضاء أجازة معك. وولداك؟ هل يشبهانك. لابد أنك فخور»

وتهدج صوتها مرة أخرى. فأمسك بكتفها وجذبها اليه لتواجهه. غير عابىء بانسكاب جزء من الشراب.

«ومن قال لك ذلك؟»

نظرت اليه صامتة وقد شحب وجهها. ثم غامت ملامحه الغاضبة عندما سالت دموعها وقالت بصوت مختنق:

«وهل يهم... ولكن... ابق بعيداً عني يا مات.. انني»

وبدون أن تتم كلماتها، دفعت اليه بالكأس وجرت كالمجنونة في الظلام.

ولم يبد له أثر في اليوم التالي. وفي اليوم الثالث لمحته مرة على سلسلة الصخور. وعادت تفرز كتب عمهد وتحزم ما تريد منها في صندوق كبير كان لوني قد جاء به اليها في الليلة السابقة. وضايقها معصمها حيث لدغتها الحشرة وهي في الرحلة عند بركة كوتيبا. ووجدت مكان اللدغة قد تورّم واحمر. وعالجته باللوسيون فلم تهدأ رغبتها في حكه، وعندما فعلت ذلك ظهرت بقعة من الدم فأيقنت أنها هتكت الجلد.

وقضت يوم السبت مع لوني حيث اصطحبها الى جزيرة مجاورة لمشاهدة انتاج لب جوز الهند المجفف. ولكنها عادت الى وحشة الليل ووحدته من جديد. وشعرت بصداع أرقها، فتناولت قرصين من الأسبرين في الصباح، ونزلت الى البحر للاستحمام. فشعرت بدوار واعياء. وتناولت قرصين آخرين عند الظهر وأوت الى الفراش ترتعش تحت الأغطية. ونامت لتصحو في الظلام. وأوقدت المصباح بصعوبة وكانت ذراعها ثقيلة وجسمها كأنه مشتعل بالنار. ورأت خيطاً أحمر في ذراعها المصابة ينبىء بالالتهاب، فأدركت أن لدغة الحشرة كانت مسمومة.

ولم تذكر إلا قليلاً من ساعات الكابوس التي تلت ذلك وهي في رحلتها الأليمة الى الكوخ الأخضر طلباً للمساعدة. ومات يندفع اليها ليتلقاها قبل أن تسقط وهي تغمغم في شبه هذيان. ثم وهو يعطيها شراباً ويخطبها ويتحدث الى شخص لم يكن موجوداً. ثم لا شيء. فشخص يمسها... وأصوات... ووجه بشعر فضي يطل عليها. وشكة ابرة في عجزها. وأحلام مختلطة. ثم استيقاظها على رائحة النباتات. لتجد البيت كما عهدته. وأخبرها مات أنها مكثت يومين بسبب الحمى، وأن الدكتور شالمرز تولّى علاجها بعد أن تعذّر نقلها الى العيادة بسبب هياج البحر.

واكتشفت أنها ترتدي أحد قمصانه. وتساءلت وهو يحضر لها الفطور، بعد أن أدركت مدى معاناته في العناية بها:

«هل كانت ميلاني هنا يا مات؟»

«جاءت لتعرض خدماتها في التمريض. ولكنني لا أعتقد أنها أدركت الصعوبات. فصرفتها»

«ألن تخبر زوجتك يا مات؟»

«الزمي الصمت. كلي الآن»

وبينما كانت تتناول الشاي، قال:

«لا أستطيع أن أتركك تذهبين بانطباع خاطىء، وان كان هذا قد يبدو أفضل من بعض النواحي، انني لست متزوجاً يا كريستي. ليس الآن. ان زوجتي ماتت منذ خمسة أعوام»

«ولكنها قالت انك متزوج! قالت ذلك... على الأقل... لديك ولدان»

«هذا صحيح تماماً»

فتسارع صوتها بالغضب من خدعة ميلاني الناعمة، وقالت:

«لقد تركتني أفترض أنك متزوج. وقالت ان الجميع يتحدثون عني، وانني لا أفكر في سمعتي. أوه. كيف أمكنها أن تفعل ذلك، وقد صدقتها»

«أعرف ذلك. بدأت أدرك أن شيئاً غريباً قد حدث، كنت سأخبرك لو لم تندفعي الى الخارج في تلك الليلة وأنت تبكين. ليس الأمر سراً. ماتت زوجتي بعد إصابتها بالانفلونزا خلال وباء في فصل الشتاء، ولم تكن تظن أن بها ضعفاً في القلب. ووقع الأمر فجأة حتى أننا لم نصدقه»

«انني آسفة يا مات»

وهنا جاء الدكتور شالمرز واطمأن عليها، وأوصاها بالبقاء ساكنة وطلب من مات أن يعتني بها. وعندما انصرف طلبت من مات أن يبقى معها قليلاً لتتحدث اليه فترة، ولم يصدق أنها تريد الحديث معه فقط. وقال:

«من الأفضل أن تبقى الأمور بيننا على ما هي عليه. تذكري أنني أكبر منك سناً. وأنني أدرك ما يمكن أن تفعله جاذبية الطبيعة، فقد كنت متزوجاً، وأنا أعرف

علائم ذلك».

وتركها بعد أن أحاطها بكل أسباب الرعاية، وأدركت أنه لا ينوي الاقتراب منها هذا المساء. لقد جعلت من نفسها حمقاء فيما يتعلق بجات. بل بلغ من حمقها أن جعلته يفهم أنها تهتم به، وهو لا يريد أن يتورط معها في شيء. حسناً سينتهي الأمر كله في أقل من أسبوع، ولن يراها بعد ذلك.

وقررت أن تعود الى بيتها وتعنى بشأنها، وتحاملت على نفسها وانسلت خارجة، وكاد يغشى عليها من الصدمة عندما أمسكت بذراعها قبضة قوية. فصاحت تطلب منه أن يدعها تذهب. ولكنه حملها عنوة الى الفراش.

«هل أنت مجنونة ألا تدركين ما يحدث لك؟»

«اذهب عني!»

«لا تبك بحق السماء. قولي لي أن أذهب الى الجحيم، ولكن... صدقيني... إن آخر شيء أريده هو ايذاؤك».

«لقد فات أوان هذا القول!»

فانحنى عليها، وتعلقت به بغريزتها، ولكنه قال:

«لا تفعل ذلك. انني بشر يا كريستي».

تنهدت بارتعاشة قائلة:

«ولماذا أتظاهر؟ أنت تعرف أنني أحبك. ولم أعد أملك من أمر نفسي شيئاً».

فانتفض لمسة شفتيها الناعمة ازاء عنقه ودفعها.

«هذه هي المشكلة. انك لا تحبينني».

«ولكنني أحبك. كيف يمكن أن تعرف مشاعري؟»

«انه ليس حباً أيتها الصغيرة، ولا مستقبل له».

«أعرف ذلك. لقد أوضحته أنت منذ البداية، ولكنني لا أطلبك لمستقبل. انني لا أنصب لك فخاً من أجل الزواج اذا لم تكن تريد ذلك».

«تنصبين لي فخاً! إن براءتك هي الفخ بعينه. اسمعي يا كريستي. انك لا

تحبينني، أنت تحبين الحب نفسه. لقد تملكك سحر المكان، ولكن لا تعطي قلبك عليه. هذا يمكن أن يحدث لأي انسان. وأنا مجرد رجل تصادف وجوده في هذه البقعة».

«أتعني انه كان يمكن أن أحب أي رجل لمجرد أنه رجل؟»

«شيء كهذا!»

«لا أعتقد أنك تصدق ذلك».

فانتفض بعيداً عنها قائلاً:

«أنت محقة تماماً. أنا لا أصدقه! لكن المشكلة هي أنني استغرقت وقتاً طويلاً في تبين ذلك. ولكنه لا يجعل هناك أي فارق يا كريستي».

«أتخبرني بأمر اذا وعدتك بنسيان هذا الموضوع؟»

«لا حاجة بك الى السؤال. الجواب هو لا».

«انني لا أسألك إذا كان يمكن أن تحبني».

«وما سؤالك اذاً؟»

«اذا كنت تعجب بي كامرأة وكشخص. عندما عانقتني لم يكن ذلك لمجرد أنني فتاة موجودة؟ أكنت تعانق أي فتاة أخرى وتغازلها لمجرد أنها هنا؟ انني أعرف أن الأمر يختلف مع الرجل، فالرجل لا يحتاج في هذه الحالة الى أن يكون محباً. أريد أن أعرف هذه المسألة، والا فلن أهنأ بكبرياء أو راحة بال بعد ذلك».

«انني أقدر شجاعتك وصراحتك، وسأكون صريحاً مثلك. الجواب هو لا. لم أكن أنوي أبداً أن أقيم علاقة عرضية معك، انني في السادسة والثلاثين يا كريستي، ولي ولدان كبيران في العاشرة والسابعة. ويقيد تقريباً في مثل طولك، وأنت لم تكملي العشرين وأمامك وقت طويل لتكتشفي فيه أمور الحياة، وماذا تريدين، ومن تريدين، من الحياة. أما أنا فانني اذا بدأت علاقة مع امرأة ما، فانني أفعل ذلك بهدف الزواج، وهذا ما يجب عليك أن تصدقيني عندما أقول لك انه ليس ثمة مستقبل في أن تحبيني. ان هذا لن يقلع أبداً، وانني

أتذرك على نحو لا يجعلني أؤذيك أو أحطم أوهامك».

رقدت ساكنة يتناب قلبها ألم الخسارة الكبيرة، ولكنها مع ذلك، في حالة نفسية قوية لأنها عرفت أن مات لم يكن غير مكترث بها بالمرة، ولأنها لم تخطئ في حكمها عليه، ودليل ذلك صدقه العميق الذي صارحها به.

٩ - حادث الطائرة الجميل

وجاءت اللحظة التي كانت تخشاها كريستي، لحظة الرحيل، وتساءل مات، وهو على وشك إغلاق الصندوق الكبير الذي جمعت فيه حاجياتها:

«أهذا كل شيء؟ تتركين أشياء كثيرة وراءك».

«سأدعها كما هي».

«في حالة عودتك».

«لن أعود أبداً. سأفكر فيها وهي تتهاوى بالتدريج. العناكب الكبيرة تنسج خيوطاً حولها، والنباتات الخضراء تنمو عليها، وسأعرف عندما تذهب جميعاً أنها كانت حلماً».

لمس كتفها فاستدارت اليه:

«لن يكون الأمر هكذا دائماً يا كريستي، ستنسين».

«لا تكن عطوفاً عليّ يا مات، وإلاّ فسأجعل من نفسي حمقاء مرة أخرى».

«اللنش قادم. كنت أود أن تسمحي لي بمرافقتك الى الطائرة، لأطمئن على سلامتك».

«كلا. أفضلُ ألا تفعل. لوني سيتولى أمر متاعي».

وجاء اللنش ونزل منه لوني، لم تبق إلاّ لحظات مع مات. أخذت نفساً عميقاً ومدت اليه يدها:

«حسناً شكراً على مساعدتك لي بشأن المعدات... و...»

والتفت بنظره، وكانت ميتة. تحللت خطبة الوداع التي كانت تراجعها في ذهنها برباطة جأش وذهبت أدراج الرياح. قالت بصوت مختنق:

«ستكتب الي، وسترسل لي صورة. لن تنسى!»

«لن أنسى. لن أنساك. أتمنى لك رحلة طيبة».

«نعم، وداعاً يا مات. وحظاً حسناً».

وانتهى الأمر في دقائق. واتسعت شقة الماء بينهما، وشعرت بجزء منها يبقى مع الرجل الطويل الذي لوّح لها مرة واحدة بيده قبل أن يمضي على الشاطىء، خارجاً من دائرة بصرها وحياتها الى الأبد.

وشكرت الأقدار لأنها لن تضيّع إلاّ وقتاً قليلاً في تاموتوا. لمجرد وداع سريع لبن. ثم المضي مباشرة الى المطار. وكانت الطائرة، التي تعمل بين الجزر، ممتلئة بالمسافرين. وجلست كريستي بجوار سيدة بدينة في منتصف العمر تدعى السيدة اميليا بين كانت قادمة من فيجي بعد رحلة من انكلترا للحاق بابنها الذي كان يبني فندقاً في إحدى الجزر الصغيرة. أخذت السيدة تثرثر والطائرة تهبط عند كل جزيرة في طريقها. وفجأة، وبينما كانت الطائرة في الجو اندفعت فجأة وتغيرّ صوت آلاتها. وقالت كريستي لنفسها: انه مطب هوائي على ما تعتقد. ولكن الآلات ما لبثت أن توقّفت. وحط الذعر المفاجىء على المسافرين واختل توازنهم وحاول كل منهم أن يمسك بأي شيء. والطائرة تنحدر فجأة وتهوي. وصرخت السيدة بين بينما سمعت كريستي وراءها صوت زجاج يتهشم. واعتدلت الطائرة وقال رجل ضخم جاء من مكان القيادة:

«لا تفزعوا. ثبّتوا أحزمتكم واخفضوا رؤوسكم. إننا سنقوم بهبوط اضطراري».

ومرّت لحظات كأنها كابوس والطائرة تفقد ارتفاعها بسرعة وزرقة البحر تندفع لتلقى الجميع. وساد صمت مطبق وقد شحب الركاب شحوب الموتى في انتظار لحظة الارتطام المفزعة التي لا مفر منها. وعندما جاءت اللحظة بضجة عالية شعر

الجميع وكأنهم انشقوا اربا وأظلمت الطائرة. ثم ماالبثت الأضواء أن جاءت وبدرت من عجلات الطائرة أصوات انسحاق وتمزق، ولكن لم يكن ثمة شعور بالاصابة. بل أحست كريستي كأنها تطفو. وهتف الرجل الضخم:

«رباه! لقد سقطنا على ظهر موس دام!»

ساد الذعر مرة أخرى وجاهدت كريستي للتخلص من حزامها والتفلت بجلدها. ووجدت السيدة بين تميل نحوها فخطر لها مفزوعة أنها ماتت وما لبثت أن أحست بشيء آخر. وصرخت السيدة بين:

«انني أغرق! الماء يدخل! أخرجوني من هنا!»

كانت أرض الطائرة قد بدأت فعلاً تمتلىء بماء البحر. وعلا صوت الرجل الضخم يحاول السيطرة على الموقف. وأفهمهم أن الطائرة في محاولة النزول على إحدى الضحضاح العائمة قادها الاندفاع الى سلسلة من الصخور الغاطسة. وهي الآن تقف عليها مغمورة بقدم من الماء ولكن لا حاجة للفزع، فان الطائرة لن تغرق، وعلى الجميع أن يهدأوا في انتظار فرقة الانقاذ. ولكنه لم يخبرهم أن الطيار قد أصيب بخلع في كتفه وأن جهاز الراديو قد تلف.

وجاءت فرقة الانقاذ بعد أربع ساعات في شكل قوارب التفت بهم في نصف دائرة. وما لبثت أن حملتهم الى جزيرة أراموزا القريبة، حيث لم يكن هناك إلاّ فندق به خمس غرف نوم فقط بلا حمامات. بينما كانوا هم ثمانية عشر شخصاً. وكان عليهم أن يتدبرّوا البقاء فيه الى أن تتم اجراءات نقلهم.

وقضت كريستي ليلة مؤرقة. وقد انتابها الضعف نتيجة المشقة التي لقيتها ومرضها الأخير. ولكن هذا الضعف توارى أمام ألم آخر لن يستطيع أن يخففه إلاّ الزمن. وفكرت في الرجل الذي عليها أن تقضي مغاليق نفسها، ثم أخذ منها المفتاح. وتخيلت المستقبل بدون مات ديهام. فبكت أخيراً بحرقة وحرارة وصمت، يأساً وأسفاً على الحب الذي ضاع.

وعند الظهر تقريباً جاءت طائرة بحرية لتقلهم الى فيجي. واستبد الغضب

بالسيدة بين لأنها كانت قادمة لتوها من فيجي. واستغرق الأمر وقتاً لافهامها حقيقة الموقف وفاجأ الرجل الضخم كريستي بأنها ستبقى.

«لا تفزعي: لقد تلقينا أمراً بذلك، أنت والمهندس الماليزي السيد ليم. سننقلكما فيما بعد.»

وأشفق عليها الطيار فأفهمها أنها سيبقيان لتوفير يوم من أيام السفر عليهما، وأن هناك طائرة هيليكوبتر ستأتي لنقل المهندس، الى جزيرة بانيته، وبذلك توفر يومين قبل أن تلحق بالطيران الدولي.

وبقيت متوترة في الفندق الخالي بعد أن ذهب الجميع. حتى المهندس اختفى. أيمكن أن تكون الطائرة قد جاءت ونقلته؟ ولكن اذا كان ذاهباً الى ماليا وهي وجهة السيدة بين فلماذا لم يدعوها تذهب معه؟

وخرجت تمشي على الشاطىء، لتنفس عن توترها بعد أن ضاقت بالمكان. ورأت طائرة الهليكوبتر تحوم وتهبط. كم أوغلت بدون أن تدري! واستبد بها الفزع وجرت لتلحق بالطائرة حتى تقطعت أنفاسها. وتملكها الذعر تماماً وهي تراها تقلع. لا يمكن! لا يمكن أن تأتي وتذهب بهذه السرعة وتتركها مرة أخرى! وهذه المرة بسبب غلطتها.

لا. ليس ما تحدث الاخيال مفزع حاكه القدر لتعذيبها. لدرجة أنها تسمع في هلوستها أيضاً صوتاً لا يمكن أن تنساه.

كان الفندق يبدو معتماً كقلالة من الظلام، وصوت مات يأتيها في هدوء: «لقد بدأت أعتقد أنك عرضة دائماً للحوادث، أيتها الصغيرة».

١٠ - فتاة بطول الكتف

وانتصب أمامها شكله فهتفت:

«مات! أحقاً أنت؟»

واندفعت الى أمان ذراعيه الصلبتين قائلة:

«لقد ظننت أن الطائرة ولّت من غيري. ولم أعرف ما أفعل، اذ كانت الطائرة الكبرى ستفوتني أيضاً».

«ويكون العالم كله قد نسيك. يا لكريستي المسكينة».

وشعرت فجأة بأنها تسلم قلبها الأحمق لمن لا يريده. فتراجعت معتذرة عن انسياب عواطفها قائلة:

«لقد كنت آخر شخص أتوقع رؤيته».

«أحقاً! وهل أنت على ما يرام؟»

فروت له أنها بخير لم تصب في حادث الطائرة. وصحبها لتناول بعض الشراب في جانب من ردهة الفندق لتستعيد قواها. وأخبرها أن طائرة الهيليكوبتر جاءت لنقل المهندس الماليزي، وستعود بعد ساعات لنقلها. ولاحظت لدهشتها أنه استخدم لفظاً ثنائياً فقالت:

«لن ينفع ذلك، لا بدّ أن يأخذنا منفصلين. والا فكيف ستعود؟»

«كما جئت».

«اسمع يا مات، اذا كانت تراودك فكرة مجنونة عن القدوم الى بيابيت للاطمئنان على سلامة سفري فلست في حاجة الى ذلك. لست مضطراً الى أن تشعر بمسؤولية إزائي لمجرد أنني تعلقت بك في الجزيرة. لقد اتفقنا على أن تنسى كل شيء. فلماذا تكترث؟»

«لم أستطع أن أبقى بعيداً. مررت بوقت عصيب ليلة أمس. كنت قلقاً أتساءل أين تكونين، وعما اذا كان أحد يرعاك عما اذا كنت مصابة، أو شقية أو مذعورة، ولمت نفسي لأنني أبعدتك عن الجزيرة. وهذا هو السبب في مجيئي».

فهبت غاضبة وهتفت بانفعال:

«ما كان يجب أن تأتي! اذا كنت قد قضيت وقتاً عصيباً فماذا تظنني فعلت؟ أنا لم يعدني أحد. أتسمع! وأنت آخر من يفعل بي ذلك».

وسقط مقعدها من ورائها واندفعت الى الدرج والى غرفتها وهي تتعثر وترتعد. ولكنه لحق بها وأمسك بكتفيها وأدارها نحوه بحركة غاضبة وهتف:

«كفي عن ذلك. ألا ترين لماذا جئت؟»

وأحكم قبضته عليها بقوة فأفلتت منها انة وقال:

«لماذا أنت هشة هكذا؟ صغيرة جداً على نحو يمكنني أن أحطمك بها أحاول ألا أؤذيك، إن الأمر يخيفني. أنظر اليك وأعرف أن العالم لم يؤذك أبداً، الى أن آذيتك أنا. وهذا يجعلني...»

«لا، لا تشفق عليّ، ولا تشعر بالذنب نحوي. انا لا أشعر بالخجل لأنني أحببتك. ولا ألومك لأنك لا تستطيع أن تهبني حبك. ولكن الشفقة هي آخر شيء أريده».

«انك لا تفهمين بعد. أليس كذلك؟»

وجذبها اليه بقوة ثم ضغط وجهها في كتفه وأخذ يربت على شعرها. وهمس اليها:

«آسف أيتها الصغيرة، لم أقصد أن يكون الأمر هكذا. انك غالية جداً بالنسبة إليّ. وهذا هو السبب في مجيئي. لأنني اذا كنت قوياً تمكنت من إبعادك لأجل

سعادتك، وهذا يجعلني أضحي بسعادتي».

رفعت رأسها ببطء، لترى في عينيه جوعاً لم تشهده في عيني رجل من قبل. قال وهو يأخذ وجهها في راحتيه ويرفعه الى وجهه:

«نعم. جئت لتعودي معي، على الدوام. فهل ستأتين؟»

«أتعني، أتعني أنك تريدني أن أنتمي اليك؟ أتعني أنني أعني شيئاً بالنسبة اليك يا مات؟»

أخفض رأسه واتصل الحب بينهما بلمس أطراف أصابعه، وقال:

«لن تعرفي أبداً كم تعنين بالنسبة إليّ يا صغيرتي. أنا نفسي لم أعرف ذلك إلا عندما سمعت أن الطائرة سقطت. ولكن لابد أن تكون علاقتنا دائمة. هل أنت متأكدة؟»

«انني لم أعتبر مشاعري نحوك سراً أبداً. أنت الذي كنت تشك يا مات».

«لأنني لم أعتقد أن عدة أسابيع قصيرة يمكن أن تشكل أساس حب دائم... فهل تستطيعين أن تتخلي عن جذورك يا كريستي؟ لا أعني لوقت قصير بل ربما الى الأبد؟ لأن حياتي تقع هنا الآن».

«لقد خلعت جذوري منذ اليوم الذي أبحرت فيه من سوثامبتن».

«كلا! لقد أبحرت بلا مبالاة بشيء، تلمساً لارتياد آفاق جديدة. ودفعك على ذلك ضيق الشباب، وليس فكرة الانتقال بحياتك الى مكان آخر. كان موطنك دائماً هناك. وعائلتك المحبة، وكل ما أسهم في نسيج حياتك. كان كل شيء ينتظر الوقت الذي تحتاجين فيه اليه. فهل في وسعك أن تتركي كل ذلك بدون أسف؟»

ظلت ساكنة للحظة، ثم اتجهت الى النافذة وحدقت في البحر المظلم، وقالت بصوت خفيض:

«الاجابة هي نعم. اذا كنت تحبني بما فيه الكفاية يا مات».

«وهناك شيء آخر هام لابد من تذكره يا كريستي».

«أعرف. ولداك دافيد وبيت. أنت لست واثقة مما سيقولان، وكيف سيتصرفان

إزاء غريبة جاءت تحل محل والدتها، هذا ما يقلقك يا مات، أليس كذلك؟»

«ليس هذا كله، هل في وسعك أن تأخذي على عاتقك أسرة جاهزة يا كريستي، أولاد امرأة أخرى؟»

«تعني أن أحبهما كأنهما أولادي؟ أن أحبهما الحب الذي يحتاجان اليه؛ لا أستطيع أن أقول إلا أنني سأحاول يا مات، أن أعوضهما مما فقداه. اذا حاولا حبي واذا ساعدتني أنت على ذلك . . بحبك»

«لست أظن ستحتاجين لمساعدتي»

قال ذلك برقة وهو يمد ذراعيه، فدخلت كريستي قائلة بينهما:

«أنت تعرف الكثير عني، عن شعوري نحوك حتى قبل أن أعرفه أنا. ولكنك لم تظهر أي اهتمام سواء بوجودي أو بعدم وجودي، وأظن أنك كنت فعلاً تريد طردي من الجزيرة في البداية لو أتحت لك نصف مزحة»

«لأنني كنت أعرف في البداية ما سوف يحدث سأكون صريحاً معك، لم أشأ أن أخاطر باعطاء قلبي لفتاة لا يتجاوز طولها كتفي، فتاة تبدو كأنها في العاشرة من العمر إلا لم كأمرة صغيرة مثيرة لا تعرف مقدار قوتها في أن آخر. كانت لدي فكرة غامضة عن زواجي مرة أخرى في يوم من الأيام، ولكن لم يكن هناك شبه إلا من بعيد بينك وبين الصورة الغامضة في خيالي»

قالت وهي تضحك:

«وهل حبيب أحلامنا يشبه دائماً حبيب حياتنا؟ لقد ازدريتك في البداية. ولكنني لم أستطع أن أذعن إلا بعد أن تحديتك وأثبت أنني لم أكن لأذهب بسببك فقط. ثم اذا بك فجأة تبدأ في تقبيلي... وأنا...»

ولم تستطع أن تكمل البقية من الخجل. فقال وذراعاه محكمتان حول خصرها، وعيناه تداعبانها:

«عرفت متى حدث الأمر بيننا، كان ذلك في اليوم، أو العملية التي حوصرنا فيها على ظهر التيفون، أليس كذلك؟ كانت هي الليلة التي رأيت فيها حقاً بوادر

الخطر، لم أكن رفيقاً معك تلك الليلة أيتها الصغيرة»

«ألم تكن ذلك حقاً؟»

«لم أستطع أن أصارحك في ذلك الوقت، ولكنك خرجت منتصرة عليّ في تلك الليلة»

قربت خدها منه.

«أحقاً؟ لم يبد الأمر كذلك في ذلك الحين»

«كلا. لقد حاولت عمداً أن أسحق ما ظننته مجرد افتتان مراهقة في ذلك الوقت»

«أيها الرأس الكبير»

«...وذلك باعطائك مذاق خيال...ولكن الأمر لم يفلح»

«أحقاً؟ لقد نسيت»

«كلا. أعتقد أنك تذكرين جيداً. لقد غازلتك على نحو كان يمكن لأية فتاة في مثل هذه الظروف أن تدرك ما يفضي اليه. ولكنك لم تفعلي شيئاً مما توقعته لم تتظاهري ببراءة غاضبة، ولم تظهري خجلاً يردني قليلاً ثم يدفعني، وهي حيلة نسائية يمقتها معظم الرجال، وبدلاً من ذلك عكست الأوضاع بشكل أنيق، وبكرامة جعلتني أخجل من محاولة تحطيم ثقتك، ومع ذلك برقة ما كانت لتضر كبرياء الرجولة»

وفتح النافذة بعد أن أخرجت من جيبه علبة سكائره وأشعلت واحدة. وكانت حركة صغيرة يراد بها افساح المجال قليلاً لعواطفها المثيرة. وما لبثت أن قالت:

«كانت هناك ميلاني أيضاً رأيتك تعانقها خارج الفندق في إحدى الليالي»

ضحك برقة وهو يمد يديه حولها:

«أحقاً؟ وهل ستغارين من كل امرأة عانقتها؟»

«لا...مادمت لن تعانقهن أبداً بعد ذلك. انك لم تر في ميلاني المرأة المثالية التي يمكن أن تتزوجها، أليس كذلك؟»

«لقد كانت تريد غزلاً فقط إنها ملولة وتعرف الحدود»

«أتعني أنها وضعت لنفسها حدوداً؟»

«نعم».

فتعلقت به وطوقته، وانحنى عليها بحرارة، ولكنه توقف قائلاً:

«كلا، ليس هنا يا قلبي الحبيب، لا أستطيع أن أبقى بإحساس أنني قريب فقط من امتلاكك. انني أريدك كلك».

«وأنا أريدك أيضاً. انني لم أعرف أبداً أنه يمكن أن أكنّ لأحد شعوراً كهذا.. برغبة الانتماء».

«أنت تفهمين الآن لماذا جاهدت لأوقف هذه الصحوة حتى لا تأتي قبل الأوان. لقد أردت أن تكوني موقنة من مشاعر قلبك، وأردت أن أعرف حقيقة مشاعري.. لا أن أعرضك للحسرة».

قالت في بساطة:

«انني أحبك كثيراً يا مات».

«وأنا أحبك كثيراً جداً. تعالي يا قلبي الصغير. أمامنا خطط كثيرة نضعها، ورحلة نقوم بها، هذه المرة معاً».

«معاً».

وضعت يدها، وحياتها، في يده، وبدأت معه أولى الخطوات الرائعة في مستقبلها.

ما هو ذلك الشيء، الذي قالته السيدة ألين، هذه السيدة الضريرة: البشر لا الأماكن ولا الممتلكات، هم الذين يجلبون السعادة أو الشقاء في الحياة. كم هي صحيحة تلك الحكمة. ألم تجد كريستي في مات أعظم آلمها، ثم أعظم سعادتها؟

..تمت

مع تحيات جروح